المحبة بين العبودية والفطرية

د. علي حسين يحيى موسى

أكاديمي سعودي، أستاذ مشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
بجامعة الملك خالد

الفصل الثاني: الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد، والرد على شبه المنكرين لتقسيمهم.....١٦٨
المبحث الأول: الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد ١٦٩
المطلب الأول: دلالة أسماء الله تعالى على أقسام التوحيد ١٦٩
دلالة اسمه تعالى (الله) على أنواع التوحيد الثلاثة:.....١٦٩
دلالة أسمائه تعالى (الله، الرب، الرحمن، الملك) على أقسام التوحيد الثلاثة: ...١٧٠
المطلب الثاني: دلالة فاتحة الكتاب على أقسام التوحيد ١٧٢
دلالة سورة الفاتحة بجملتها على أقسام التوحيد:.....١٧٢
المطلب الثالث: دلالة سورة الناس على أقسام التوحيد ١٧٥
المطلب الرابع: دلالة سورتي الكافرون والإخلاص على أقسام التوحيد ١٧٦
المطلب الخامس: دلالة بعض آيات القرآن منفردة على أقسام التوحيد.....١٧٨
المطلب السادس: دلالة دعاء القيام من الليل على أقسام التوحيد.....١٨٢
المطلب السابع: دلالة استقراء نصوص الكتاب والسنة على أقسام التوحيد...١٨٥
المبحث الثاني: شبه المنكرين لتقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة والرد عليهم.....١٨٧
المطلب الأول: شبهة أن تقسيم التوحيد لم يَرِدْ في الكتاب والسنة ١٨٧
المطلب الثاني: شبهة أن تقسيم التوحيد لم يعرفه السلف.....١٨٩
المطلب الثالث: شبهة أن تقسيم التوحيد أمر اصطلاحي لا حقيقة شرعية....١٩٣
المطلب الرابع: شبهة أن توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية نفسه.....١٩٥
الخاتمة.....١٩٧
فهرس المصادر والمراجع.....١٩٩
فهرس الموضوعات ٢١٠

فهرس الموضوعات

الموضوع ..... الصفحة
ملخص البحث ١١١
المقدمة ١١٥
أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه:.....١١٦
خطة البحث: ١١٧
منهج البحث:.....١٢٠
تمهيد: التعريف بأهل السنة والجماعة لغة واصطلاحاً ١٢١
المطلب الأول: المدلول اللغوي لأهل السنة والجماعة ١٢١
المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي لأهل السنة والجماعة ١٢٤
الفصل الأول: أقسام التوحيد ١٣٠
المبحث الأول: أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة.....١٣١
المطلب الأول: منهج أهل السنة والجماعة في تقسيم التوحيد ١٣١
المطلب الثاني: تقسيمات أهل السنة والجماعة للتوحيد متفقة في المضمون.....١٣٩
المطلب الثالث: تلازم أقسام التوحيد وترابطها.....١٤١
المبحث الثاني: أقسام التوحيد عند المخالفين لأهل السنة والجماعة.....١٤٤
المطلب الأول: أقسام التوحيد عند الأشاعرة و الماتريدية والرد عليهم ١٤٤
أقسام التوحيد عند الأشاعرة والماتريدية: ١٤٤
الرد على الأشاعرة والماتريدية في تقسيمهم للتوحيد: ١٤٨
المطلب الثاني: أقسام التوحيد عند الصوفية والرد عليهم.....١٥٦
أقسام التوحيد عند الصوفية: ١٥٧
الرد على الصوفية في تقسيمهم للتوحيد: ١٦١

اعتنى بها: أبو عبدالرحمن سمير الماضي- رمادي للنشر، الدمام- الطبعة: الثانية- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٨٥) النهاية في غريب الحديث والأثر- المبارك محمد بن الجزري ابن الأثير -تحقيق: محمود محمد الطناحي- دار الفكر، بيروت- ط. د-ت. د.

٨٦) وسطية أهل السنة بين الفرق- د. محمد با كريم محمد با عبدالله- دار الراية، الرياض - الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

هارون- دار الجيل، بيروت- ط: ١-١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٧٧) معنى (لا إله إلا الله) ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع- د.صالح بن فوزان الفوزان -الجامعة الإسلامية، مركز شئون الدعوة- ط: ١-١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٧٨) الملل والنحل- محمد بن عبدالكريم الشهرستاني -تحقيق: عبدالعزيز محمد الوكيل- مؤسسة الحلبي، القاهرة- ط. د-ت.د.

٧٩) منازل السائرين- عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر- الطبعة: الثانية- ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٨٠) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية- شيخ الإسلام ابن تيمية -تحقيق: د. محمد رشاد سالم- إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ط. د-١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٨١) منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة- جابر إدريس علي أمير -أضواء السلف، الرياض- ط: ١-١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٨٢) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى- خالد بن عبداللطيف بن محمد نور -مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية- ط: ١-١٤١٦هـ/ ١٩٩م.

٨٣) الموافقات في أصول الفقه - إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي - تحقيق: عبد الله دراز - دار المعرفة، بيروت.

٨٤) المواهب الربانية من الآيات القرآنية- عبدالرحمن ابن سعدي-

٦٩) مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين)[1]- محمد بن أبي بكر ابن القيم -دار الكتب العلمية، بيروت- ط: ٢-١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٧٠) مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين)- محمد بن أبي بكر بن القيم -تحقيق: محمد حامد الفقي- دار الكتاب العربي، بيروت- ط: ٢-١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٧١) المسامرة بشرح المسايرة للكمال ابن الهمام- الكمال بن أبي شريف- المطبعة الكبرى الأميرية، مصر- الطبعة: الأولى- ١٣١٧هـ.

٧٢) المسند- الإمام أحمد بن حنبل -بيت الأفكار الدولية، الرياض- ط. د-١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٧٣) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيء على الأمة الإسلامية- إدريس محمود إدريس -مكتبة الرشد، الرياض؛ شركة الرياض، الرياض- ط: ١-١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٧٤) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول- حافظ بن أحمد الحكمي -ضبط وتعليق وتخريج: عمر بن محمود أبو عمر- دار ابن القيم، الدمام- ط: ١-١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٥) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات- د. محمد ابن خليفة التميمي- دار إيلاف، الكويت- ط: ١-١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٧٦) معجم مقاييس اللغة- أحمد بن فارس بن زكريا -تحقيق: عبدالسلام

(١) الإحالة إلى هذه الطبعة تكون مقيدة بعبارة: «ط: العلمية»، وأما الطبعة الثانية: فتكون الإحالة إليها بغير تقييد.

به: د. سليمان أبا الخيل؛ د. خالد المشيقح- دار العاصمة الرياض- ط: ١- ١٤١٥هـ.

٦١) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية- عبدالعزيز المحمد السلمان - مطبعة السعادة- ط: ٢-١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٦٢) لسان العرب- محمد بن مكرم ابن منظور -دار صادر، بيروت- ط. د-ت. د.

٦٣) الماتريدية دراسة وتقويماً- أحمد بن عوض الله اللهيبي الحربي -دار العاصمة، الرياض- ط: ١-١٤١٣هـ.

٦٤) الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات- الشمس السلفي الأفغاني- الطبعة: الثانية- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٦٥) المباحث العقدية في حديث افتراق الأمم- أحمد سردار محمد شيخ- الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة- الطبعة: الأولى- ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٦٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية- جمع وترتيب: عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم -دار عالم الكتب، الرياض- ط. د-١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٦٧) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (فتاوى العقيدة)- جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان-دار الثريا، الرياض- ط: ٢-١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٦٨) مجموعة الرسائل والمسائل- شيخ الإسلام ابن تيمية -دار الكتب العلمية، بيروت- ط: ١-١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

بيروت -ط: ١-١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٥٢) طبقات الصوفية- محمد بن الحسين بن محمد أبو عبدالرحمن السلمي-مكتبة الخانجي، القاهرة- الطبعة: الثالثة- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٣) عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي -مكتبة دار التراث، القاهرة- ط. د-ت. د.

٥٤) العقيدة الطحاوية -مع شرح الألباني- أحمد بن محمد الطحاوي - المكتب الإسلامي، بيروت؛ دمشق؛ عمان- ط: ٢-١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٥٥) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام - د. غالب العواجي - دار لينة، دمنهور - الطبعة: الرابعة - ١٤٢٠هـ.

٥٦) الفقه الأبسط (ضمن: العقيدة وعلم الكلام من أعمال محمد زاهد الكوثري- دار الكتب العلمية، بيروت- الطبعة: الأولى- ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥٧) الفوائد- محمد بن أبي بكر ابن القيم -دار الكتب العلمية، بيروت- ط: ٢-١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٥٨) القاموس المحيط- محمد بن يعقوب الفيروز أبادي -تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط: ٤-١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٥٩) القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد- عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد البدر -دار ابن عفان، الخبر- ط: ١-١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٦٠) القول المفيد على كتاب التوحيد- محمد بن صالح العثيمين -اعتنى

محمد بن محمود البابرتي- تحقيق: د. عارف آيتكن؛ مراجعة: د. عبدالستار أبو غدة- الطبعة: الأولى- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري- عبدالله بن محمد الغنيمان -مكتبة لينة، دمنهور- ط: ٢-١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤٥) شرح نواقض التوحيد- حسن بن علي العواجي-مكتبة لينة، دمنهور- ط: ١-١٩٩٣م/ ١٤١٣هـ.

٤٦) الشرك في القديم والحديث- أبو بكر محمد زكريا- دار الرشد، الرياض- الطبعة: الأولى- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠١م.

٤٧) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - محمد ابن أبي بكر أيوب ابن القيم الزرعي - تحقيق: محمد بدر الدين - دار الفكر، بيروت - ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٤٨) صحيح البخاري -مع فتح الباري لابن حجر- محمد بن إسماعيل البخاري -ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، إخراج: محب الدين الخطيب -دار المعرفة، بيروت- ط. د-ت. د.

٤٩) صحيح الجامع الصغير وزيادته- محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي، بيروت؛ دمشق- ط: ٢-١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٠) صحيح مسلم- مسلم بن الحجاج النيسابوري -تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي- دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط: ٢-١٩٧٢م.

٥١) الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي من حين كان يكبر- محمد بن أبي بكر ابن القيم -تحقيق: بسام عبدالوهاب الجابي- دار ابن حزم،

٣٥) سبيل الهدى والرشاد في بيان حقيقة توحيد رب العباد- د. محمد بن عبدالرحمن الخميس -مكتبة الصحابة، الشارقة؛ مكتبة التابعين، القاهرة- ط.د-ت.د.

٣٦) سنن ابن ماجه -مع شرح السندي وتعليقات مصباح الزجاجة- محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق: خليل مأمون شيحا -دار المعرفة، بيروت- ط: ٢-١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٧) سنن أبي داود -مع عون المعبود- سليمان بن الأشعث السجستاني - دار الكتب العلمية، بيروت- ط: ١-١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣٨) سير أعلام النبلاء - محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - تحقيق: عدد من المحققين - مؤسسة الرسالة، بيروت - الطبعة: العاشرة- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٩) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة- سعيد بن علي بن وهف القحطاني -ن.د- ط: ١-١٤٠٩هـ.

٤٠) شرح العقيدة الواسطية- محمد خليل هراس -راجعه: عبدالرزاق عفيفي- مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة. ط. د-ت.د.

٤١) شرح العقيدة الواسطية- محمد صالح العثيمين -تخريج: سعد بن فواز الصميل- دار ابن الجوزي، الدمام؛ الأحساء، جدة؛ الرياض- ط: ٤-١٤١٧هـ.

٤٢) شرح الكوكب المنير- محمد بن أحمد ابن النجار -تحقيق: د.محمد الزحيلي؛ د. نزيه حماد-مكتبة العبيكان، الرياض- ط. د-١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤٣) شرح عقيدة أهل السنة والجماعة (العقيدة الطحاوية)- محمد بن

٢٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- عبدالرحمن بن ناصر السعدي -تحقيق: محمد زهري النجار- الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض- ط. د-١٤١٠هـ.

٢٧) الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر- أ.د. صلاح الصاوي- أكاديمية الشريعة، أمريكا- الطبعة: الأولى- ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٨) جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم.

٢٩) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر- عبدالرزاق البيطار- حققه ونسقه وعلق عليه: محمد بهجت البيطار- دار صادر، بيروت- الطبعة: الثانية- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٣٠) درء تعارض العقل والنقل- شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - تحقيق: محمد رشاد سالم - دار الكنوز الأدبية، الرياض - ١٣٩١هـ.

٣١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- تحقيق مراقبة: محمد عبدالمعيد ضان- مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند- ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٣٢) الرسالة القشيرية- عبدالكريم بن هوزان القشيري أبو القاسم- تحقيق: د. عبدالحليم محمود؛ محمود بن الشريف- دار الكتب الحديثة.

٣٣) رسالة في علم التوحيد (ضمن مجموع المتون)- إبراهيم بن محمد الباجوري- ط: د- ت: د.

٣٤) الروح- محمد بن أبي بكر ابن القيم -دار الكتب العلمية، بيروت- ط. د-١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٧) التدمرية = التحفة المهدية- شيخ الإسلام ابن تيمية.

١٨) تفسير القرآن العظيم- إسماعيل بن عمر بن كثير -مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة- ط. د-١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٩) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة- محمد أحمد لوح -دار الهجرة، الرياض- ط: ١- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٠) التمهيد في أصول الدين- أبو المعين النسفي- تحقيق: د. عبدالحي قابيل- دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة- ١٤٠٧هـ.

٢١) التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية- عبدالعزيز الناصر الرشيد- دار الرشيد، الرياض- الطبعة: الثانية- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٢) التنديد بمن عدّد التوحيد- حسن بن علي السقاف- دار الإمام النووي، عمان- الطبعة: الثانية- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٣) التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد- محمد ابن إسحاق بن مندة- تحقيق: د. علي بن ناصر فقيهي- مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة- الطبعة: الأولى - ١٤٠٩هـ.

٢٤) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم - أحمد بن إبراهيم بن عيسى - تحقيق: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي، بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤٠٦هـ.

٢٥) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد- سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب -المكتب الإسلامي، بيروت- ط: ٧-١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم- شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية- تحقيق وتعليق: د.ناصر بن عبدالكريم العقل- مكتبة الرشد، الرياض؛ شركة الرياض للنشر والتوزيع، الرياض- الطبعة: الخامسة- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٠) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به- أبي بكر الباقلاني- تحقيق وتعليق وتقديم: محمد زاهد الكوثري- المكتبة الأزهرية للتراث، مصر- الطبعة: الثانية- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١١) البداية والنهاية - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء - مكتبة المعارف، بيروت.

١٢) بغية المرتاد - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - تحقيق: د. موسى سليمان الدويش - مكتبة العلوم والحكم - الطبعة: الأولى - ١٤٠٨هـ.

١٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية- شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية- تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم - مطبعة الحكومة، مكة المكرمة - الطبعة: الأولى - ١٣٩٢هـ.

١٤) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير(ضمن مجموعة الردود)- عبدالله بن بكر أبو زيد- دار العاصمة، الرياض- الطبعة: الأولى- ١٤١٤هـ.

١٥) تحفة المريد على جوهرة التوحيد- إبراهيم بن محمد الباجوري- ن: د- ط: د- ت: د.

١٦) التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية- فالح بن مهدي آل مهدي - تصحيح وتعليق: عبدالرحمن المحمود- مكتبة الحرمين، الرياض- ط: ٢-١٤٠٥هـ.

فهرس المصادر والمراجع

١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية- محمد بن أبي بكر ابن القيم -دار الكتب العلمية، بيروت- ط: ١- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل- محمد ناصر الدين الألباني -بإشراف: محمد زهير الشاويش- المكتب الإسلامي، بيروت دمشق- ط: ٢-١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٣) الاستقامة- شيخ الإسلام ابن تيمية -تحقيق: د. محمد رشاد سالم- مؤسسة قرطبة- ط. د-ت. د.

٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي- دار الفكر، بيروت- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥) الاعتصام- إبراهيم بن موسى الشاطبي -ضبطه وصححه: أحمد عبدالشافي- دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٢-١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٦) الأعلام - خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين، بيروت - الطبعة: الحادية عشـرة- ١٩٩٥م.

٧) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة- حافظ بن أحمد الحكمي -خرج أحاديثه وعلق عليه: مصطفى أبو النصر الشلبي- مكتبة السوادي جدة- ط: ٢-١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨) إغاثة اللهفان- محمد بن أبي بكر ابن القيم -تحقيق: محمد حامد الفقي -دار المعرفة، بيروت -ط: ٢-١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٧-أن من أهل البدع من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام -أيضاً-، إلا أنهم خالفوا أهل السنة والجماعة في مضمون الأقسام الثلاثة: إما مخالفة كلية أو جزئية.

٨-أنه قد دلت نصوص الكتاب والسنة على صحة تقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، وقد تنوعت دلالاتها على ذلك.

٩-أن لأهل البدع شُبَهاً يثيرونها للطعن في صحة التقسيم للتوحيد عند أهل السنة والجماعة، ويلبسونها لباس الدفاع عن الكتاب والسنة وفهم السلف، ولكنها -ولله الحمد- شبهٌ باطلة زائفة أمكن الردُّ عليها.

١٠-أن من اتبع الكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة كان في خير وعافية وطمأنينة؛ يدين بدين الحق، ويسير على بصيرة، ويحي على بينة. وأما من خالف الكتاب والسنة، ولم يعتدّ بفهم السلف؛ فهو في حيرة واضطراب، وزيغ وضلال، يعتقد أنه على شيء، وهو على شفا جرف هار.

١١-أنه لا اجتماع لهذه الأمة ولا قوة ولا عزة إلا بالرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح، وخاصة فيما يتعلق بالتوحيد وأمور الاعتقاد.

هذا آخر ما تيسر جمعه حول هذا الموضوع، وأسأل الله أن أكون قد وُفِّقت فيه، كما أسأله سبحانه المزيد من كرمه وتوفيقه وعونه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث توصلت -ولله الحمد- إلى عدد من النتائج المهمة، أذكر أهمها فيما يلي:

١- أن تقسيم التوحيد أمر مسلَّم ومتقرر عند أهل السنة والجماعة، دل عليه: وجوده في كلامهم وكتبهم، تارة بالإشارة وتارة بالتصريح.

٢-أنه قد تعددت طرق أهل السنة والجماعة في ذكر أقسام التوحيد: فمنهم من قسمه إلى قسمين، ومنهم من قسمه إلى ثلاثة أقسام، ومنهم من زاد قسماً رابعاً مراعياً جانب الرسالة في تقسيم التوحيد.

٣-أن من قسّم التوحيد إلى قسمين تنوعت عباراتهم في التعبير عن كل قسم منها، وحاصلها يرجع إلى جانبين: العلم والعمل. وأما من قسمه إلى ثلاثة أقسام فعبروا عنه بتعبير واحد: توحيد الربوبية، توحيد الألوهية، توحيد الأسماء والصفات.

٤-أنه مع اختلاف أقسام التوحيد فيما بينها من حيث المعنى والمدلول لكل قسم؛ إلا أن بينها ارتباطاً وثيقاً يجعلها متلازمة بحيث لا ينفك أحد منها عن الآخر.

٥-أنه يجب الإيمان بجميع أقسام التوحيد، ولا يغني الإيمان بأحدها مع ترك غيره، أو الإيمان ببعضها مع وجود الشرك في غيره.

٦- أنه لا خلاف بين من جعل التوحيد قسمين ومن قسمه إلى ثلاثة أقسام من حيث المضمون؛ لأن من قسمه إلى قسمين أجمل، ومن قسمه إلى ثلاثةٍ فصَّل.

والرب إذا ذكر وحده دخل فيه الإله، والإله إذا أفرد دخل فيه الرب، وإذا اجتمعا افترقا فصار لكل منهما معنى خاص، وإذا افترقا اجتمعا»[(١)].

٢-أن «الشرك كما يكون في الربوبية يكون في الألوهية، بل هو الغالب على أهل الإشراك من الشرك في الربوبية، وقد أخبر الله تعالى عن المشركين في آيات كثيرة من كتابه أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، ولم يكن إشراكهم في الربوبية، وإنما كان في الألوهية، حيث عبدوا أصنامهم مع الله تعالى بحجة أنها تقربهم إلى الله زلفى، ومن أعظم الآيات الدالة على أن إشراكهم كان في الألوهية: قول الله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف: ١٠٦] قال عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تسألهم: من خلقهم ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره»[(٢)].

٣- «أن التفريق بين الشرك في الربوبية والألوهية، وجعل الشرك في الأول دون الثاني تفريقٌ بين المتماثلين في الحكم المستنكر في العقول والفطر السليمة؛ لأن كلا النوعين منهيّ عنهما ومتوعّد عليهما...

٤-أخبر الله تعالى عن المشركين أن إشراكهم إنما كان في الألوهية دون الربوبية، فإهمال بيان الشرك في الألوهية، واستبداله بالشرك في الربوبية؛ أمرٌ مخالف لخبر الله وشرعه...، فكيف يترك خبر الله وبيانه، ويفسر الشرك بالاستحسان العقلي، والهوى النفسي!»[(٣)].

---

(١) القول السديد ص (٩٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٣-٢٨٤)، منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٥٧٤-٥٨٠).

(٢) منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٦٣٣-٦٣٤).

(٣) منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٦٣٨-٦٢٩).

المطلب الرابع: شبهة أن توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية نفسه

من الشبه التي عورض بها تقسيم أهل السنة والجماعة: شبهة موروثة عن أهل الكلام، وهي: أن توحيد الربوبية هو التوحيد الذي جاءت به الرسل، وهو أعلى درجات التوحيد، فمن حققه فقد حقق التوحيد، وأما توحيد الألوهية فهو توحيد الربوبية نفسه، فلا يعدّ العبد كافراً إلا إذا أشرك في الربوبية[١].

وهذه الشبهة يمكن تقسيمها إلى شقين:

الأول: ادعاؤهم أن توحيد الربوبية هو أعلى درجات التوحيد، وأن من حققه فقد حقق التوحيد.

وهذا الشق قد سبق الجواب عنه مفصلاً، فليرجع إليه[٢].

الثاني: ادعاؤهم أن توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية نفسه، وأن الشرك لا يكون إلا في الربوبية.

والجواب عنه من أوجه:

١-أن مدلول توحيد الألوهية غير مدلول توحيد الربوبية، ويقرر ذلك: الفرق بين اسمه تعالى (الله) واسمه (الرب) باعتبار دلالتهما على المعاني والأوصاف، فإن «كتب اللغة مطبقة على أن الرب بمعنى المالك الذي له الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وأما الإله فهو المعبود، من التأله، وهو التعبد.

فالرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها. والإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً.

---

(١) انظر بعض أقوال المبتدعة في هذا المعنى: القول السديد ص(٧٩، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤)، منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٥٧٤، ٥٧٦، ٥٧٧).

(٢) انظر: ص (٣٢-٣٣).

الأقسام الثلاثة من أمور الاعتقاد التي يجب اعتقادها والإيمان بها، فمضمونها هو أعظم ما يقوم عليه الولاء والبراء[١].

٢-أن أقسام التوحيد الثلاثة كل واحد منها متميز عن الآخر من حيث المعنى والمفهوم، وحدود كل نوع منها في غاية الوضوح والجلاء، وقد بيّن العلماء تلك الأقسام وعرّفوها ومثلوا لها بأفرادها وذكروا لها قواعد وضوابط تندرج تحتها، فلا يشتبه أحد الأقسام بغيره، ولا يختلط نوع منها بنوع آخر. وإذا كان الكاتب لا يميز بين كل توحيد وآخر؛ فما هو التوحيد الذي يدين الله به؟.

(١) وانظر: سبيل الهدى والرشاد ص (٦٤).

المطلب الثالث: شبهة أن تقسيم التوحيد أمر اصطلاحي لا حقيقة شرعية

من الشبه التي أريد بها هدم تقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة: زعم بعض الكتاب أن ذلك التقسيم لا ينبني على حقيقة شرعية دل عليها الكتاب والسنة، وإنما هو أمر اصطلاحي، أي: فهو اجتهاد شخصي من العلماء، حاله حال أي مصطلح آخر، لا يراد به إلا تقريب الفهم، دون أن يكون له تأثير في الولاء والبراء.

قال صلاح الصاوي: «فإن هذا التقسيم اصطلاحي، الهدف منه تقريب القضية وتنظيم دراستها، كما اصطلح أهل العلم على أسماء اصطلاحية للعلوم...، وعلى هذا فلا مشاحة في الاصطلاح، وليست هناك حدود فاصلة بين ما يدخل في توحيد الربوبية، وبين ما يدخل في توحيد الألوهية، وبين ما يدخل في توحيد الأسماء والصفات»[١].

والرد على هذه الشبهة:

١-إن تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاثة حقيقة شرعية مأخوذة بالتتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا التقسيم لا يعدّ اجتهاداً شخصياً عارياً عن الاستدلال، ولا مجرد تقسيم أريد به تقريب القضية وتنظيم دراستها، بل هو عقيدة يجب الإيمان بها، وحقيقة شرعية يتعين قبولها.

وتأمل ما نقلته سابقاً عن الطحاوي وابن بطة لترى كيف جعلا هذه

---

(١) الثوابت والمتغيرات ص (٥٤).

ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد» أقسام التوحيد الثلاثة، واستعرض كثيراً من أدلتها في الكتاب والسنة بشرح وبسطِ لا مزيد عليه، فعقد أبواباً متعلقة بتوحيد الربوبية، وأخرى متعلقة بتوحيد الألوهية، وأخرى متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات(١).

فهذه النصوص عن علماء من القرن الثاني والقرن الرابع «تدل دلالة واضحة على أن هذا التقسيم كان معروفاً قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن تبعوه من بعده، وفي هذا أبلغ ردّ على من زعموا هذا الزعم السخيف، واعتبروا ذلك تقسيماً محدثاً ليس له سلف»(٢).

(١) انظر: القول السديد ص (٣٧-٤٠).

(٢) سبيل الهدى والرشاد ص (٦٢).

سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته، وواحد لا شريك له في ألوهيته، وواحد لا شريك له في أسمائه وصفاته.

وقوله: «ولا شيء مثله» هذا من توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: «ولا شيء يعجزه» هذا من توحيد الربوبية.

وقوله: «ولا إله غيره» هذا من توحيد الألوهية»[١].

قول عبيدالله بن محمد بن بطة العكبري (ت: ٣٨٧هـ)[٢]: «وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مبايناً بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه»[٣].

فالأقسام الثلاثة في كلامه واضحة جلية.

وذكر الإمام محمد بن إسحاق بن مندة (ت: ٣٩٥هـ) في كتابه «التوحيد

---

(١) القول السديد ص (٤٧).

(٢) عبيد الله بن محمد بن محمد العكبري الحنبلي، أبو عبدالله، ابن بطة، الإمام القدوة العابد الفقيه المحدث، ولد سنة (٣٠٤هـ)، كان أمّاراً بالمعروف مستجاب الدعوة، توفي سنة (٣٨٧هـ). انظر: السير (١٦/ ٥٢٩-٥٣٣).

(٣) الإبانة (٦٩٣-٦٩٤) من النسخة الخطية، نقلاً عن القول السديد ص (٣٥).

توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: «من وصف الربوبية» فيه إثبات توحيد الربوبية.

وقوله: «والألوهية» فيه إثبات توحيد الألوهية»[١].

كما جاء ذكر الأقسام الثلاثة في كلام أبي يوسف أيضاً، حيث قال: «يُعرَف الله بآياته وبخلقه، ويوصف بصفاته ويسمّى بأسمائه كما وصف في كتابه وبما أدّى إلى الخلقِ رسولُه...، إن الله ﷻ خلقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض، وهو ينقلك من حال إلى حال؛ لتعرف أن لك رباً...، ثم وصف نفسه فقال: أنا الرب وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك، فهو يوصف بأسمائه ويسمى بأسمائه...، فقد أمرنا الله أن نوحده، وليس التوحيد بالقياس...»[٢].

٢-أن تقسيم التوحيد لم يكن ابن تيمية أول قائل به، بل قد ورد عن العلماء قبله بالتصريح تارة، وبالإشارة تارة أخرى؛ مما يدل على أن هذه الأقسام الثلاثة كانت معروفة لديهم. ومن ذلك:

قول الطحاوي (ت: ٣٢١) في مقدمة متنه في العقيدة المشهور بالطحاوية: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره.»[٣].

«فقوله: «إن الله واحد لا شريك له» شامل لأقسام التوحيد الثلاثة، فهو

---

(١) القول السديد ص(٤٧).

(٢) التوحيد لابن مندة (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٣) العقيدة الطحاوية ص (٣١-٣٢).

المطلب الثاني: شبهة أن تقسيم التوحيد لم يعرفه السلف

لما كان من أصول أهل السنة والجماعة: أنهم يحتجون بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة؛ حاول بعض أهل الأهواء إبطال تقسيم التوحيد عن طريق ذلك الأصل، فنفوا أن يكون ذلك التقسيم معروفاً لدى السلف، وادعوا أنه بدعة ابتدعها شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن الثامن الهجري.

قال حسن بن علي السقاف: «لم ينطق بهذا التقسيم أحد من الصحابة، بل ولا أحد من التابعين، بل ولا أحد من السلف الصالح -رضي الله عن الجميع-، بل إن هذا التقسيم بدعة خلفية مذمومة حدثت في القرن الثامن الهجري، أي: بعد زمن النبي ﷺ بنحو ثمانمائة سنة، ولم يقل بهذا التقسيم أحد من قبل»[(١)].

وقال أيضاً: «ابن تيمية الذي اخترع تقسيم التوحيد إلى ألوهية وربوبية..»[(٢)]

والجواب عن هذه الشبهة:

١-أن السلف الصالح قد جاء في كلامهم ذكر هذه الأقسام الثلاثة، ومن ذلك: قول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله يدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء»[(٣)].

«فقوله: «يدعى من أعلى لا من أسفل..» فيه إثبات العلو لله، وهو من

---

(١) التنديد بمن عدد التوحيد ص (٧).

(٢) المصدر السابق ص (١١).

(٣) الفقه الأبسط ص (٦٠٨-٦٠٩).

-أضف إلى ذلك: تلك الآيات الكثيرة التي تدل على نوع من أنواع التوحيد[١]، فإذا جمعت مع بعضها البعض أفادت هذا التقسيم وقررته.

-ناهيك عن دلالة استقراء نصوص الكتاب والسنة، والذي قام به أئمة أجلاء، وعلماء فضلاء، فكانت نتيجة استقرائهم: أن التوحيد الذي أمر الله به هو هذه الأقسام الثلاثة.

فكيف يصح أن يقال -بعد وجود هذه الأدلة الكثيرة بدلالاتها المتنوعة- إن تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاثة لم يرد في الكتاب والسنة؟!

(١) انظر بعض هذه الآيات في القول السديد ص (١٨-٢٠) و (٢٣-٢٩).

المبحث الثاني:
شبه المنكرين لتقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة والرد عليهم

المطلب الأول: شبهة أن تقسيم التوحيد لم يَرِدْ في الكتاب والسنة

من الشبه التي يتمسك بها من أنكر على أهل السنة والجماعة تقسيمهم للتوحيد إلى ثلاثة أقسام: ما ذكره بعض الكتاب المعاصرين من أن هذا التقسيم لم ينص عليه كتاب ولا سنة، أي: فهو تقسيم محدَث مبتدع. فقال أحدهم في ذلك: «ولم يذكر الله تعالى في كتابه، ولا النبي ﷺ في سنته: أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد ربوبية، وتوحيد ألوهية، وتوحيد أسماء وصفات»[(١)]. وقال آخر: «هذا التقسيم ابتداءً على هذا النحو لم يردْ به فيما نعلم آية محكمة أو سنة متبعة»[(٢)].

والجواب عن هذه الشبهة أن يقال: إن أدلة الكتاب والسنة على صحة هذا التقسيم أكثر من أن تحصر، وقد تنوعت دلالاتها على الأقسام الثلاثة تنوعاً يقرِّر لطالب الحق صحته، ولا يدع شبهة إلا دحضها وأزالها:

-فإن مجرد التأمل في أول سورة في القرآن (الفاتحة) وآخر سورة منه (الناس) يدل على صحة هذا التقسيم.

-فضلاً عن أن في القرآن والسنة سوراً وآيات وأحاديث، تضمنت كل سورة أو آية أو حديث منها تلك الأقسام الثلاثة، ودلت عليها دلالة كاملة.

---

(١) التنديد بمن عدّد التوحيد ص (٧-٨).

(٢) الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر ص (١٤٥).

وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»[١].

ولعله يحسن هنا أن أختم هذا المبحث بما قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دلالة القرآن على التوحيد وأنواعه، حيث قال -بعد أن ذكر أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في القصد والطلب- «وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد. بل نقول قولاً كلّياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه: فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيد العلمي الخبري وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمرٌ ونهي، وإلزام بطاعته ونهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[٢].

---

(١) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير ص (٣٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩-٤٥٠).

المطلب السابع: دلالة استقراء نصوص الكتاب والسنة على أقسام التوحيد

من الأدلة الدالة على صحة تقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة:

استقراء نصوص الكتاب والسنة، فقد استقرأ العلماء نصوص الكتاب والسنة وتتبعوها، فوجدوا أن التوحيد لا يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، ودلالة الاستقراء من الدلائل المعتمدة عند أهل كل فن.

وممن ذكر هذه الدلالة:

١-العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال: «وقد دلّ استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته... الثاني: توحيده جلّ وعلا في عبادته... النوع الثالث: توحيده جلّ وعلا في أسمائه وصفاته»[(١)].

٢-العلامة محمد بن صالح العثيمين، حيث قال: «وعَلِموا [أي: العلماء الذين قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام] ذلك بالتتبع والاستقراء والنظر في الآيات والأحاديث، فوجدوا أن التوحيد لا يخرج عن هذه الأنواع الثلاثة: فنوعوا التوحيد إلى ثلاثة أنواع»[(٢)].

٣-العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد، حيث قال: «هذا التقسيم الاستقرائي[(٣)] لدى متقدمي علماء السلف...استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطّرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧-١٨).

(٢) مجموع فتاوى ابن عثيمين (١/ ١٧-١٨).

(٣) يقصد: تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام.

وقوله: «وقولك الحق». فيه إثبات الكلام صفةً لله سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقوله: «أنت المقدم وأنت المؤخر». فيه إثبات اسمين لله سبحانه، فهو تعالى المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته. وهذا التقديم يكون كونياً وشرعياً، فالكوني: كتقديم بعض المخلوقات على بعض، والشرعي: كتفضيل الأنبياء على الخلق(١).

توحيد الألوهية:

وأما توحيد الألوهية فيدل عليه من الحديث:

ما جاء فيه من ذكر عبادات يتضمنها توحيد الألوهية كالتوكل والإنابة والتحاكم إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقوله: «لا إله إلا أنت ولا إله غيرك».

---

(١) انظر: شرح أسماء الله الحسنى ص (١٩٢-١٩٤).

ومن دلالات هذا الحديث على أقسام التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية:

أما توحيد الربوبية فيشير إليه من هذا الحديث: قوله: «أنت رب السماوات والأرض»، وقوله: «أنت ملك السماوات والأرض»، وقوله: «أنت قيم السماوات والأرض».

فهذه الجمل الثلاث اشتملت على الربوبية والملك والتدبير[١].

توحيد الأسماء والصفات:

وأما توحيد الأسماء والصفات فيدل عليه من هذا الحديث: قوله: «لك الحمد». فـ «الحمد: هو الثناء بالقول على المحمود بصفات اللازمة والمتعدية. و «أل» فيه للاستغراق والاستقصاء، أي: جميع الحمد واجب ومستحق لله تعالى، فهو المحمود على صفاته وأسمائه، وعلى نعمه وأياديه، وعلى خلقه وأفعاله، وعلى أمره وحكمه، وهو المحمود أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً»[٢].

وقوله: «أنت نور السماوات والأرض» فالنور: جاء في النصوص تسمية الرب به، وبأن له نوراً مضافاً إليه إضافة صفة إلى موصوفها كالحياة والسمع والبصر، وبإضافة نوره تعالى إلى السماوات والأرض -كالحديث الذي معنا-، وبأن حجابه النور[٣].

---

(١) وقد سبق ص (٢١) تعريف العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتوحيد الربوبية بأنه: إفراد الله بأفعاله من الخلق والملك والتدبير.

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٦٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ١٧٣-١٧٤).

المطلب السادس: دلالة دعاء القيام من الليل على أقسام التوحيد

اشتملت سنة النبي ﷺ على أحاديث كثيرة تدل على أقسام التوحيد الثلاثة، إلا أنني -من باب الاختصار- أكتفي هنا بذكر حديث واحد اشتمل على الأقسام الثلاثة، وهو الحديث الوارد في دعاء القيام من الليل.

فقد روى الشيخان -واللفظ للبخاري- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ولا إله غيرك»[(١)].

وفي رواية لهما[(٢)]: زيادة: «أنت رب السماوات والأرض» بدل «لك ملك السماوات والأرض».

---

(١) البخاري (كتاب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾، ٣/ ٣ -مع الفتح-، رقم: ١١٢٠)، مسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٣٢-٥٣٤، رقم: ٧٦٩).

(٢) البخاري (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾، ١٣/ ٣٧١، رقم: ٧٣٨٥) و (باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾، ١٣/ ٤٢٣، رقم: ٧٤٤٢)، و (باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، ١٣/ ٤٦٥، رقم: ٧٤٩٩). مسلم: الموضع السابق.

لِعِبَٰدَتِهِۦٓ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥].

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اشتملت [أي: الآية] على أصول عظيمة: على توحيد الربوبية، وأنه تعالى رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره.

وعلى توحيد الألوهية والعبادة، وأنه تعالى الإله المعبود.

وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده؛ ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ الدالة على السبب، أي: فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقاً فاعبده...

واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات، عظيم النعوت، جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سميّ، بل قدر تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات»[1].

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص (٦٠).

فيه إثبات صفة العلم، فالله سبحانه يعلم الماضي والمستقبل، ويعلم ما كان من فعله سبحانه وما كان من أفعال خلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فاسمه تعالى (العلي): «دال على أن جميع معاني العلوّ ثابتة لله من كل وجه: فله علو الذات، فإنه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى (أي: علا وارتفع). وله علو القدر، وهو علوّ صفاته وعظمتها، فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته...، وله علوّ القهر، فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم»[(١)].

واسمه تعالى (العظيم): أي: «الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم»[(٢)].

توحيد الألوهية:

ويظهر توحيد الألوهية في هذه الآية من مواضع، ففي قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، «فأخبر أنه الله الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة»[(٣)].

الآية الثانية[(٤)]: قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ

(١) شرح أسماء الله الحسنى ص (٧٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣١٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣١٣).
(٤) التي دلّت على أقسام التوحيد الثلاثة.

ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه...

والقيوم: أي: أنه القائم بنفسه، فقيامه بنفسه يستلزم استغناءه عن كل شيء...، ومن معنى (القيوم) كذلك: أنه قائم على غيره...فهو إذاً كامل الصفات وكامل الملك والأفعال»[١].

واسمه تعالى (الحي) يقتضي كمال عزته وقدرته وسعة علمه و شمول حكمته وعموم رحمته وغير ذلك من صفات الكمال الذاتية، واسمه (القيوم) يتضمن جميع الصفات الفعلية[٢].

ثم ذكر سبحانه أنه لا يأخذه النعاس ولا النوم؛ لأنهما «إنما يعرضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال»[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فيه إثبات الملك الكامل لله سبحانه، وهو من خصائص ربوبيته، «فهو مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيدٌ لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور...، فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف والسلطان والكبرياء»[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (١/ ١٦٦).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣١٣)، الكواشف الجلية ص (٧٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣١٤).

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

المطلب الخامس: دلالة بعض آيات القرآن منفردة على أقسام التوحيد

في كتاب الله الكريم آيات دلت كل آية منها بانفرادها على أقسام التوحيد الثلاثة، فتكون الآية مشتملة على الأقسام الثلاثة اشتمالاً كاملاً دون نظر إلى دلالات التلازم والتضمن والشمول، وفيما يلي ذكر لآيتين دلتا على ذلك:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[البقرة: ٢٥٥].

هذه الآية هي آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله، لما روى مسلم عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: (والله ليهنِك العلم يا أبا المنذر)[(١)].

وقد اشتملت هذه الآية على أقسام التوحيد الثلاثة، وإليك بيان ذلك:

توحيد الربوبية والأسماء والصفات:

دلت هذه الآية على **توحيد** الربوبية والأسماء والصفات:

ففي قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾:

الحي: «ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال، لم تسبق بعدم،

---

(١) صحيح مسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، ١/ ٥٥٦، رقم: ٨١٠).

نفسه أنواع الكثرة بقوله ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وعن نفسه المشابهة والمجانسة بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، ونفى عن نفسه الحدوث بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾»[(١)].

٢-واشتملت سورة الكافرون على التوحيد العملي نصاً (وهو توحيد الألوهية)، وهي دالة على العلمي لزوماً. واشتملت سورة الإخلاص على التوحيد العلمي نصاً (وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات)، وهي دالة على العملي لزوماً؛ فإن أحد التوحيدين لا يتم إلا بالآخر[(٢)].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اسمه تعالى (الأحد) يوجب أن لا يشرك به في العبادة ولا في الاستغاثة والدعاء، وهذا يبين دلالة سورة الإخلاص على توحيد الألوهية[(٣)].

وقد سميت هاتان السورتان بسورتي الإخلاص[(٤)]؛ لما اشتملتا عليه من إخلاص جميع أنواع العبادة لله، وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في سنة الفجر والمغرب والوتر، فيكون أول نهاره توحيداً، وخاتمته توحيداً، وخاتمة عمله بالليل توحيداً[(٥)].

---

(١) الكواشف الجلية ص (٧٣). وانظر: شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص (٣٣-٣٤).

(٢) انظر: التحفة المهدية ص (٢٨).

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٥٩)، وانظر أيضاً: (٢/ ٣٠٩-٣١٠).

(٤) انظر: التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٢٧)، اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٤٣).

(٥) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٤٣)، التحفة المهدية ص (٢٨).

المطلب الرابع: دلالة سورتي الكافرون والإخلاص على أقسام التوحيد

اشتملت سورتا الكافرون و الإخلاص على أقسام التوحيد الثلاثة:

١-فسورة الكافرون اشتملت على التوحيد في القصد والإرادة والعمل (وهو توحيد الألوهية)، فإن في السورة إيجاب عبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من عبادة كل ما سواه[١].

بينما اشتملت سورة الإخلاص على التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي (وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات)[٢]، ودلالتها على توحيد الأسماء والصفات بالمطابقة، ودلالتها على توحيد الربوبية بالتضمن[٣]، وبيان ذلك: أن الله سبحانه ذكر في هذه السورة اسمين عظيمين من أسمائه سبحانه -وكل أسمائه عظيم- وهما: الأحد والصمد، وهذان الاسمان لم يذكرا في القرآن إلا في هذه السورة. وهما يتضمنان أنه سبحانه هو «الذي يقصده كل شيء لذاته ولما يطلب منه، وأنه مستغنٍ بنفسه عن كل شيء، وأنه بحيث لا يجوز عليه التفرق والفناء، وأنه لا نظير له في شيء من صفاته ونحو ذلك مما ينافي الصمدية، وهذا يوجب أن يكون حياً عالماً قديراً ملكاً قدوساً سلاماً مهيمناً عزيزاً جباراً متكبراً»[٤]. كما تضمنت هذه السورة «نفي الشريك بجميع أنواعه: فقد نفى عن

---

(١) انظر: التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٢٧)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٤٦٥)، اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٣).

(٢) انظر: المصادر السابقة نفسها.

(٣) الكواشف الجلية ص (٧٢).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٥٩)، وانظر أيضاً (٢/ ٣٠٩-٣١٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٥٧٤-٥٧٥).

المطلب الثالث: دلالة سورة الناس على أقسام التوحيد

وإذ بينت دلالة سورة الفاتحة -أول سورة في القرآن- على أقسام التوحيد فإنه يحسن هنا بيان دلالة سورة الناس -آخر سورة في القرآن- على ذلك.

فإن القارئ لهذه السورة يجد فيها أقسام التوحيد الثلاثة ظاهرة غاية الظهور لا تحتاج إلى تكلف:

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فيه إثبات الربوبية لله سبحانه.

وقوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ فيه إثبات لصفة الملك المتضمنة لصفات عديدة من صفات الله -كما سبق بيانه-.

وقوله: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ فيه إثبات الألوهية لله سبحانه.

فاجتمعت أنواع التوحيد الثلاثة في ثلاث آيات متتابعات في سورة واحدة.

أما دلالتها على توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية: فظاهر؛ فإن قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إخلاص العبادة لله سبحانه -وذلك من معنى ألوهيته-، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إفراد الله لطلب الاستعانة على كل مطلوب - وذلك من معنى ربوبيته؛ لأنه سبحانه هو القادر على كل شيء، المالك المدبر-[١].

وأما دلالتها على الأسماء والصفات: فقال ابن القيم: «إن العبد يشهد من قوله: (إياك) الذات الجامعة لجميع صفات الكمال التي لها كل الأسماء الحسنى، ثم يشهد من قوله: (نعبد) جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً، ثم يشهد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكل والتفويض. فيشهد منه جمع الربوبية، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جمع الإلهية، ويشهد من (إياك) الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى»[٢].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٧)، الصلاة وحكم تاركها ص (٢٠٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٠).

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتوحيد الأسماء والصفات -وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أثبتها لنفسه وأثبتها لله رسوله، من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه-: وقد دل على ذلك لفظ (الحمد) -كما تقدم-»[١]. يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: «هو الثناء على الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه»[٢].

الدلائل في سورة الفاتحة على أقسام التوحيد الثلاثة:

١-دلالة (الحمد) على أقسام التوحيد الثلاثة:

من دلائل سورة الفاتحة على أقسام التوحيد: ما بدأ الله به السورة، وهو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، «فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله [وهذا هو توحيد الأسماء والصفات]، مع محبته والرضا عنه والخضوع له [وهذا هو توحيد الألوهية، وهو متضمن لتوحيد الربوبية]، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له»[٣].

٢-دلالة أسمائه تعالى (الله، الرب، الرحمن، الملك) على أنواع التوحيد:

وقد سبق بيان ذلك في المطلب الأول.

٣-دلالة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

دلت هذه الآية على أقسام التوحيد الثلاثة:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٤).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٥)، وانظر أيضاً (١/ ٤٥) -ط: العلمية.

المطلب الثاني: دلالة فاتحة الكتاب على أقسام التوحيد

دلت فاتحة الكتاب -التي هي أعظم سورة في القرآن- على أقسام التوحيد الثلاثة دلالة عظيمة، سواء كان ذلك عن طريق دلالتها على ذلك بجملتها، أو عن طريق ما احتوته في ثنايا آياتها.

دلالة سورة الفاتحة بجملتها على أقسام التوحيد:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تضمنت -أي: سورة الفاتحة- تعريف الرب، والطريق الموصل إليه، والغاية بعد الوصول، وتضمنت الثناء والدعاء، وأشرف الغايات وهي العبودية، وأقرب الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدماً فيها الغاية على الوسيلة، والمعبود المستعان على الفعل؛ إيذاناً لاختصاصه، وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه، وتضمنت ذكر الإلهية والربوبية والرحمة، فيُثنى عليه ويُعبد بإلهيته، ويخلق ويرزق ويميت ويحي ويدبر الملك ويضل من يستحق الإضلال ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينعم ويرحم ويجود ويعفو ويغفر ويهدي ويتوب برحمته. فلله كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد وحقائق الإيمان»[(١)].

وقال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه السورة -على إيجازها- قد احتوت على ما لم تحتوِ عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية: يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

توحيد الألوهية -وهو إفراد الله بالعبادة-: يؤخذ من لفظ (الله)، ومن

---

(١) شفاء العليل ص (٢٢٨).

ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله)، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب)، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم (الرحمن)...، وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال والقهر والحكم ونحوها أخص باسم (الملك)»[1].

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣-٣٤)، وانظر: الفوائد ص (١٩).

ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد»[١].

وقريب من هذا: ما ذكره أهل العلم من اشتمال كلمة التوحيد على أقسام التوحيد الثلاثة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات»، ووجه الدلالة: أن كلمة التوحيد دلت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلّت أيضاً على توحيد الربوبية، فإن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، ودلت على توحيد الأسماء والصفات، فإن مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض[٢].

دلالة أسمائه تعالى (اللّه، الرب، الرحمن، الملك) على أقسام التوحيد الثلاثة:

فأسماؤه تعالى (الرب، الملك) دالان على توحيد الربوبية وتفرده سبحانه بالملك واسمه (الله) دال على توحيد الألوهية، واسمه (الرحمن) دال على إثبات صفة الرحمة لله سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته[٣].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إلى هذه الأسماء الأربعة، ومدارها عليها[٤]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢-٣٣).

(٢) انظر: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ص(١٣)، وقول شيخ الإسلام منقول عنه، ولم أقف عليه في كتب شيخ الإسلام بعد البحث عن طريق البرامج العلمية المعاصرة. وانظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين (١/ ٨٢)، سبيل الهدى والرشاد ص (٥٠-٥١).

(٣) انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٣-٤٤) -ط: العلمية.

(٤) انظر: المصدر السابق (١/ ٧).

المبحث الأول:
الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد

المطلب الأول: دلالة أسماء الله تعالى على أقسام التوحيد

سبق أن بينت -عند ذكر العلاقة بين أقسام التوحيد- أن توحيد الأسماء والصفات شامل لتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ذلك أن من أسماء الله: الرب-الخالق-الرازق-الملك وهذا هو توحيد الربوبية، ومن جملتها: الله-الغفور-الرحيم-التواب وهذا هو توحيد الألوهية. وبهذه العلاقة تظهر الدلالة العامة لأسماء الله تعالى على القسمين الآخرين من أقسام التوحيد.

وهناك دلالة خاصة لبعض أسمائه سبحانه على أقسام التوحيد الثلاثة:

دلالة اسمه تعالى (اللّه) على أنواع التوحيد الثلاثة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسم (الله) دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث[1]، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص...، فعلم أن اسم (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم (الله).

واسم (الله) دال على كونه مألوهاً معبوداً تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته

---

(١) يعني دلالة المطابقة والتضمن واللزوم.

الفصل الثاني

الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد، والرد على شبه المنكرين لتقسيمهم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد.

المبحث الثاني: شبه المنكرين لتقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة والرد عليهم

إضافة إلى أن من كان الفناء غاية توحيده «انسلخ من دين الله، ومن جميع رسله وكتبه، إذ لم يتميز عنده ما أمر الله به مما نهى عنه، ولم يفرق بين أولياء الله وأعدائه، ولا بين محبوبه ومبغوضه، ولا بين المعروف والمنكر، وسوّى بين المتقين والفجار، والطاعة والمعصية، بل ليس عنده في الحقيقة إلا طاعة؛ لاستواء الكل في الحقيقة التي هي المشيئة العامة الشاملة»[(١)].

وأما الحلول الخاص:

فهو في الأصل «قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حلّ في الناسوت، ثم انتقل في عهد المأمون إلى الصف الإسلامي بواسطة الرافضة الذين قالوا: إن الله حلّ بعلي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته، والصوفية الذين يقولون بأن الله حلّ في الأولياء»[(٢)]، فإذا كانت غاية توحيد الصوفية هي الوصول إلى عقيدة نصرانية خبيثة؛ فلا شك أنه ضلال عظيم، إذ جعلوا قول النصارى -الذي هو من مذاهب أهل الكفر والضلال- هو التوحيد الذي هو أحب الأعمال إلى الله.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٧٩-١٨٠) -ط: العلمية.

(٢) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي (١/ ٤٦١-٤٦٢)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١٧١-١٧٢، ٤٣٥)، مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ٢٩). وانظر في عقيدة الصوفية في الحلول والاتحاد: تقديس الأشخاص (١/ ٤٦١-٤٨٢).

أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١]»[(١)].

الثالث: أن مقتضى هذا التقسيم «أن أصحاب التوحيد الثاني والثالث أعلى منزلة ومكانة من الأنبياء والمرسلين الذين لم يعرفوا هذا النوع من التوحيد ولم يفنوا في ذات الله كما تزعم الصوفية، ولا تكلموا حول هذا التقسيم، فالأنبياء والرسل قد قصروا عن إدراك هاتين الدرجتين في التوحيد كما تزعم الصوفية»[(٢)].

٣) أن غاية هذا التقسيم إما إلى الفناء في توحيد الربوبية، أو إلى الحلول الخاص:

فأما الفناء في توحيد الربوبية: فليس هو التوحيد الواجب الذي به يخرج الإنسان من الإشراك إلى التوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد، فإن الرجل لو أقرّ بما يستحق الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما يتنزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء؛ لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له»[(٣)].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) سبيل الهدى والرشاد ص (٤٩).

(٣) توضيح المقاصد (٢/ ٢٦١).

والآخرين من الرسل، قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]...، وقد أخبر الله تعالى عن كلٍّ من الرسل مثل نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لقومهم: اعبدوا الله مالكم من إله غيره، وهذا أول دعوة الرسل وآخرها...، والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد والدعوة إليه وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به...، وهو أول الدين وآخره، وباطن الدين وظاهره»[(١)]، فكيف يجعل أدنى أقسام التوحيد؟!.

الثاني: أن «أكمل الناس توحيداً: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وأكملهم توحيداً الخليلان محمد وإبراهيم -صلوات الله وسلامه عليهما-»[(٢)]، «وكمال توحيدهما بتحقيق إفراد الألوهية، وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء، يحب ما أحب ويبغض ما أبغض، ويرضى بما رضي ويسخط بما سخط، ويأمر بما أمر وينهى عما نهى»[(٣)]، «فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه وجاهدوا الأمم عليه...، فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٤٦-٣٤٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١) -ط: العلمية.

(٣) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٥٥).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولو لم يكن عنه عبارة لما نطق به أحد، وأفضل ما نطق به الناطقون هو التوحيد، كما قال النبي ﷺ: (**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله**)[(١)]، وقال: (**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة**)[(٢)]»[(٣)].

وبعد هذا أعود لبيان ما تضمنه تقسيم الصوفية من الخطأ والباطل:

١) أن هذا التقسيم -بما تضمنه من القسمين الثاني والثالث- «ليس له أي مستندٍ لا من الكتاب ولا من السنة، بل هو عين الشرك، إذ هو الحلول بعينه»[(٤)].

٢) أن هذا التقسيم جعل التوحيد الحق في أدنى منازل التوحيد، وجعله توحيد العامة، وذلك باطل من أوجه:

الأول: أن التوحيد الحق الذي مبناه على كلمة التوحيد وإثبات الكمال لله سبحانه هو: «الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وبه بعث الله الأولين

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بن عبدالله (كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، ٤/ ٢٤٧-٢٤٨، رقم: ٣٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٢٤٨) رقم (١١٠٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد رقم (٢٢٣٨٤، ٢٢٤٧٨)، وأبوداود (كتاب الجنائز، باب في التلقين، ٨/ ٢٦٧- مع عون المعبود-، رقم: ٣١١٤) من حديث معاذ بن جبل، وحسنه الألباني في الإرواء (٣/ ١٤٩-١٥٠) رقم (٦٨٧).

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل (١/ ١٢٣).

(٤) الشرك في القديم والحديث (١/ ٣٠).

الأمر: أن كل من تكلم بالتوحيد أو تصوَّره وهو يشهد غير الله فليس بموِّحد عندهم. وإذا غاب وفني عن نفسه بالكلية فتمّ له مقام توحيد الفناء الذي يجذبه إلى أرباب الجمع؛ صار الحق هو الناطق المتكلم بالتوحيد، وكان هو الموحِّد وهو الموحَّد، لا موحِّد غيره. وحقيقة هذا القول لا يكون إلا بأن يصير الرب والعبد شيئاً واحداً، وهو الاتحاد، فيتحد اللاهوت والناسوت، كما يقول النصارى: إن المتكلم بما كان يُسمع من المسيح هو الله»[(١)].

الرد على الصوفية في تقسيمهم للتوحيد:

إن الملاحظ في تقسيم الصوفية للتوحيد: أنهم وافقوا أهل السنة والجماعة وكذا الأشاعرة والماتريدية في عدد الأقسام، ثم وافقوا أهل السنة في ذكر التوحيد الحق ضمن أقسام التوحيد، ولكنهم في النهاية خالفوهم ووافقوا الأشاعرة والماتريدية في إهمال التوحيد الحق، ثم تميزوا بالفناء في توحيد الربوبية والحلول من بعده.

وقبل بيان ما تضمنه تقسيمهم للتوحيد من الخطأ والباطل؛ أحب أن أنقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فيمن قال من الصوفية: إنه لا تصح العبارة عن التوحيد، فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله[(٢)]: إنه لا تصح العبارة عن التوحيد؛ كفر بإجماع المسلمين، فإن الله قد عبّر عن توحيده، ورسوله عبّر عن توحيده، والقرآن مملوء من ذكر التوحيد، بل إنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب بالتوحيد، وقد قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٧٠-٣٧٢).

(٢) أي: الشبلي، وقد سبق ذكر قوله ص (٤٧).

ويعملون عليه: أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل، ثم تغيب صورة المشاهِد ورسمه أيضاً، فلا يبقى له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته: أن يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل»[(١)]، «وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به، فيظن أنه اتحد به وامتزج، بل يظن أنه هو نفسه»[(٢)]، «وأصل هذا الفناء: الاستغراق في توحيد الربوبية، وهو رؤية تفرد الله بخلق الأشياء وملكها واختراعها، وأنه ليس في الوجود قط إلا ما شاءه وكوّنه، فيشهد ما اشتركت فيه المخلوقات من خلق الله إياها ومشيئته لها وقدرته عليها وشمول قيوميته وربوبيته لها، ولا يشهد ما افترقت فيه من محبة الله لهذا وبغضه لهذا، وأمره بما أمر به ونهيه عما نهى عنه، وموالاته لقوم ومعاداته لآخرين...، فلا يشهد كثرة دلالات أسماء الرب تعالى وصفاته على وحدة ذاته...، والفرق بين مأموره ومنهيه، ومحبوبه ومبغوضه، ووليه وعدوه»[(٣)].

وأما القسم الثالث: ففسره شيخ الإسلام ابن تيمية بالاتحاد والحلول الخاص، وقال: «وحقيقة قول هؤلاء: الاتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد، ولا يوحِّد الله إلا الله، وكل من جعل غير الله يوحِّد الله فهو جاحد عندهم»، إلى أن قال: «وحقيقة

(١) مدارج السالكين (١/ ١٦٧) -ط: العلمية.

(٢) المصدر السابق (١/ ١٧٤) -ط: العلمية.

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٧٧-١٧٨) -ط: العلمية.

القدم، على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها، هذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء هذا الطريق وإن زخرفوا له نعوتا وفصلوه فصولا، فإن ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاء والصفة نفورا والبسط صعوبة، وإلى هذا التوحيد شخص أهل الرياضة وأرباب الأحوال، وله قصد أهل التعظيم، وإياه عني المتكلمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات، ثم لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة، فإن التوحيد وراء ما يشير إليه مكون أو يتعاطاه حين أو يقله سبب»[(١)].

شرح أقسام التوحيد عند الصوفية:

لقد شرح أبو إسماعيل الهروي الأقسام الثلاثة السابقة بعباراتٍ زادتها -في كثيرٍ منها- إيهاماً وغموضاً[(٢)]، إلا أن ما يهمنا هنا هو بيان المعنى العام لكل قسم.

أما القسم الأول: فالمراد به هو التوحيد القائم على شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، المبني على الأدلة والبراهين والآيات المتلوة والمرئية، الذي يوجد عند العبد بتوفيق الله له إليه، والذي يزيد وينمو بمشاهدة الأدلة والآيات[(٣)].

وأما القسم الثاني: ففسره شيخ الإسلام ابن تيمية بالفناء في توحيد الربوبية[(٤)]، وفسّر ابن القيم الفناء بقوله: «الفناء الذي يشير إليه القوم

---

(١) منازل السائرين ص (١٣٥-١٣٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٥٠١) إلى آخر الكتاب -ط: العلمية.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٤، ٥١٦) - ط: العلمية.

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٥٥-٣٥٩).

الوجه الأول: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والوجه الثاني: توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق، والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة.

فأما التوحيد الأول: فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة، وبه حقنت الدماء والأموال، وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر، وصحت به الملة للعامة وإن لم يقوموا بحق الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صححها قبول القلب.

هذا توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والشواهد هي الرسالة والصنائع يجب بالسمع ويوجد بتبصير الحق، وينمو على مشاهدة الشواهد.

وأما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة، وهو إسقاط الأسباب الظاهرة والصعود عن منازعات العقول وعن التعلق بالشواهد، وهو أن لا تشهد في التوحيد دليلا، ولا في التوكل سببا، ولا للنجاة وسيلة، فتكون مشاهدا سبق الحق بحكمه وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وتعليقه إياها بأحايينها، وإخافة إياها في رسومها، وتحقق معرفة العلل، وتسلك سبيل إسقاط الحدث، هذا توحيد الخاصة الذي يصح بعلم الفناء، ويصفو في علم الجمع، ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع.

وأما التوحيد الثالث: فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقدره، وألاح منه لائحا إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه، والذي يشار به عليه على ألسن المشيرين أنه إسقاط الحدث وإثبات

توهم أنه واصل فليس بحاصل»[١].

وقال الشبلي أيضاً: «ما شم روائح التوحيد من تصور عنده التوحيد»[٢].

«**ثانياً**: لقد صرح الصوفية بأن التوحيد الذي أرسل الله الرسل وأنزل الكتب من أجله: توحيد العوام، أما الخواص [فـ] يعتبر هذا التوحيد عندهم شركاً.

ثالثاً: لقد قسم الصوفية التوحيد إلى أقسام لم ترد في الكتاب ولا في السنة»[٣].

وفيما يلي ذكر أقسام التوحيد عند الصوفية، مع بيانها، ثم الرد عليهم.

أقسام التوحيد عند الصوفية:

قال أبو إسماعيل الهروي[٤]: «والتوحيد على ثلاثة وجوه:

---

(١) الرسالة القشيرية ص (١٣٩).

(٢) المصدر السابق ص (١٣٧).

(٣) الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢١٣).

(٤) أبو إسماعيل، عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، من ذرية أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شيخ الإسلام الإمام القدوة الحافظ الكبير، مولده في سنة (٣٩٦هـ)، قال عنه الذهبي: «ولقد بالغ أبو إسماعيل في «ذم الكلام» على الاتباع فأجاد، ولكنه له نفس عجيب لا يشبه نفس أئمة السلف في كتابه «منازل السائرين»، ففيه أشياء مطربة، وفيه أشياء مشكلة، من تأمله لاح له ما أشرت إليه...، وقد كان هذا الرجل سيفا مسلولا على المتكلمين، له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده يعظمونه...، وكان طودا راسيا في السنة لا يتزلزل ولا يلين...، وقد امتحن مرات وأوذي...، قد انتفع به خلق، وجهل آخرون، فإن طائفة من صوفية الفلسفة والاتحاد يخضعون لكلامه في «منازل السائرين» وينتحلونه ويزعمون أنه موافقهم، كلا، بل هو رجل أثري، لهج بإثبات نصوص الصفات، منافر للكلام وأهله جدا، وفي «منازله» إشارات إلى المحو والفناء...، ويا ليته لا صنف ذلك». بقي إلى سنة نيف وسبعين وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٠٣-٥١٨).

المطلب الثاني: أقسام التوحيد عند الصوفية والرد عليهم

«لقد وقف الصوفية[١] من التوحيد الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه موقفاً معادياً تماماً، ويتمثل ذلك [فيما يأتي]:

أولاً: قال بعضهم: «إنه لا يمكن التعبير عن التوحيد، بل هو شيء خيالي، ومن عبَّر عنه فقد أشرك وكفر»[٢].

ومن ذلك: أنه قيل للشبلي[٣] وهو من الأئمة العظام عند الصوفية: أخبر عن توحيد مجرد، وبلسان حق مفرد. فأجاب الشبلي قائلاً: «ويحك! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليك فهو ثنوي، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق به فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن

---

(١) اختلف في تعريف الصوفية -من حيث النسبة- على أقوال كثيرة، فقيل: نسبة إلى الصوف، وقيل: إلى الصفاء، وقيل: إلى الصُّفَّة، وقيل غير ذلك، وأما في الاصطلاح: فعُرِّف التصوف بأنه: «الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق»، وقيل غير ذلك، وقد مرّت الصوفية بمراحل، فكانت نشأتها في أوائل القرن الثاني الهجري عن طريق المبالغة في الزهد والعبادة والمحبة والخوف ونحو ذلك، ثم أخذت منحى التقعيد والتنظير لأصول المذهب وقواعده في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما أنها انحرفت إلى عقيدة فناء الإنسان عن نفسه واتحاده بربه، وتأثرت بالمذاهب الفلسفية القديمة كالبوذية والهندوسية وغيرهما، وفي القرون السادس والسابع والثامن بلغت أقصى مدى في الانتشار في البلاد الإسلامية. انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢٥-٥٣).

(٢) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ٢١٣).

(٣) اسمه دلف، يقال: ابن جحدر، ويقال: ابن جعفر، ويقال: اسمه جعفر بن يونس، خراسانى الأصل، بغدادى المنشأ والمولد، صحب الجنيد ومن فى عصره من مشايخ الصوفية، ويعدّه الصوفية أوحد وقته حالاً وعلماً، مات سنة (٣٣٤هـ). انظر: طبقات الصوفية ص (٩٧).

التوحيد، وأن من حققه فقد حقق التوحيد، وقد سبق مناقشة ذلك مما يغني عن إعادته هنا[١].

وبما سبق يتضح أن تقسيم التوحيد عند الأشاعرة والماتريدية «فيه ما هو حق، وفيه ما هو باطل»[٢]، وحتى الحق الذي عندهم رتبوا عليه أموراً باطلة، وهذا كله يبين ما ذكرته سابقاً من أن تقسيم الأشاعرة والماتريدية جمع بين التقصير في بيان أقسام التوحيد، والانحراف عن مفهوم التوحيد الصحيح الذي قرّره الكتاب والسنة.

---

(١) انظر ص (٤١-٤٤).

(٢) التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٣٤٨).

عرشه ومباينته لخلقه واتصافه بالصفات الخبرية كالوجه واليد ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله[١].

٢-**قولهم: «واحد في صفاته الأزلية لا نظير له -أو لا شبيه له-»**: هو أيضاً من الألفاظ المجملة، فيقال:

❁ «إن أرادوا بذلك أنه سبحانه مسمى بالأسماء الحسنى، ومتصف بالصفات الكاملة العليا التي لا يماثله فيها أحد: فهذا حق...

❁ وأما إن أراد القائل المعنى الباطل من أنه سبحانه غير مستوٍ على عرشه ولا ينزل إلى السماء الدنيا، ولا يجيء لفصل القضاء يوم القيامة، ولا يفعل ما يريد، إلى غير ذلك: فهو ملحد ضال»[٢].

وقد سبق عند شرح هذه العبارة[٣] أن الأشاعرة والماتريدية أرادوا بها نفي صفات الله التي توهموا أن إثباتها يقتضي التشبيه، حتى أدرجوا نفي الصفات في مسمى التوحيد، فصار من يقول: إن الله يُرى في الآخرة، أو أن القرآن كلام الله حقيقة غير مخلوق؛ صار عندهم مشبهاً وليس بموحد[٤].

٣-**وقولهم: «واحد في أفعاله لا شريك له»**:

سبق أنهم يجعلون مضمون هذه العبارة -وهو توحيد الربوبية- أهم أنواع

---

(١) انظر: التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٣٤٧-٣٤٨)، منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٥٩٦)، القول السديد ص (٥٩)، سبيل الهدى والرشاد ص (٤٨).

(٢) التحفة المهدية ص (٣٤٤).

(٣) انظر ص (٣٦).

(٤) انظر: التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٣٤٥)، الروح ص (٢٦١-٢٦٢)، القول السديد ص (٥٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا فسّر المفسّر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه؛ لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره»[(١)].

وأما الانحرافات التفصيلية في تقسيم الأشاعرة والماتريدية للتوحيد[(٢)] فهي:

١ - قولهم: «إن الله واحد في ذاته لا قسيم له».

هذا من الألفاظ المجملة المبتدعة التي يستفصل عن معناها:

❁ فإن قصدوا بها أن الله أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فيمتنع عليه أن يتفرق أو يتحيز أو يكون قد ركب من أجزاء: فهذا المعنى حق، ولكن الألفاظ التي عبروا بها مبتدعة باطلة؛ لأنها لم ترد في صحيح المنقول.

❁ ولكنهم في الحقيقة إنما يريدون بها نفي صفاته تعالى، كنفي علوه على

= توضيح المقاصد (٢/ ٢٦٢).

(١) توضيح المقاصد (٢/ ٢٦١-٢٦٢)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٢) سبق ذكر الانحرافات الإجمالية ابتداءً من ص (٣٨).

وهذا الأمر -أعني اعتبار توحيدِ الربوبية أهمَّ أقسام التوحيد، وأن من حققه فقد حقق التوحيد- خطأ من عدة أوجه:

❁ أن «أصل الإقرار بالصانع والاعتراف به مستقر في قلوب جميع الإنس والجن، وأنه من لوازم خلقهم ضروري فيهم»[(١)].

❁ «أن إثبات ربين للعالم لم يذهب إليه أحد من بني آدم، ولا أثبت أحد إلهين متماثلين ولا متساويين في الصفات ولا في الأفعال، ولا أثبت أحد قديمين متماثلين ولا واجبي الوجود متماثلين، ولكن الإشراك الذي وقع في العالم إنما وقع بجعل بعض المخلوقات مخلوقة لغير الله في الإلهية بعبادة غير الله تعالى واتخاذ الوسائط ودعائها والتقرب إليها، كما فعل عباد الشمس والقمر والكواكب والأوثان وعباد الأنبياء والملائكة أو تماثيلهم ونحو ذلك. فأما إثبات خالقين للعالم متماثلين فلم يذهب إليه أحد من الآدميين»[(٢)].

❁ أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم النبي ﷺ كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، ومع ذلك لم يصيروا موحّدين، بل هم مشركون كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع، وكما علم بالاضطرار من دين الإسلام[(٣)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٨٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٤)، وانظر: مجموعة الرسائل والمسائل (١/ ٤٣-٤٤).

(٣) انظر: التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٣٤٠)، درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٥)، =

ثم اتبع المعتزلة الفلاسفة فقالوا بأن القدم أخص وصف لله سبحانه فلا يتجزأ ولا ينقسم ولا يتبعض، ونفوا بذلك جميع صفات الله القائمة بالذات؛ لأن إثباتها -في زعمهم- يؤدي إلى تعدد القدماء. ثم سار الأشاعرة والماتريدية على سيرهم، وكان تقسيمهم للتوحيد تبعاً لذلك[١].

٣) أن العبارات التي استعملوها في أقسام التوحيد عبارات مجملة مبتدعة، توهم من لم يعرف قصدهم أنهم يقصدون بها معنى صحيحاً، وهم في الحقيقة إنما يريدون التوصل بتلك الألفاظ المبتدعة إلى إنكار صفات الباري سبحانه بدعوى نفي الانقسام أو المشابهة.

٤) نتج عن تقسيمهم هذا للتوحيد: أن جعلوا توحيد الربوبية -وهو الذي عبّروا عنه بقولهم: «واحد في أفعاله لا شريك له»- أهم أقسام التوحيد، وطوّلوا في تقريره والاستدلال عليه بأدلة عقلية محضة موروثة عن الفلاسفة اليونانيين كدليل الجواهر والأعراض[٢].

---

(١) انظر: منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٥٦٨-٥٦٩)، و (٢/ ٥٩٤-٥٩٥).

(٢) وطريقة استدلالهم بدليل الجواهر والأعراض: أن الموجودات كلها على ضربين: قديم لم يزَل، ومُحدَث لم يكن ثم كان، والمُحدَث ثلاثة أقسام: الجسم (وهو المؤلَّف المركَّب)، والجوهر (وهو الذي له مكان وله قيام بذاته)، والعَرَض (وهو الذي يعرِض في الجواهر والأجسام ولا يصح قيامه بذاته كاللون والحركة، ولا يصح بقاؤه وقتين)، فالأعراض حادثة؛ لما هي عليه من التنافي والتضاد، فالحركة تبطل عند مجيء السكون، وفي بطلانها دليل على طروء السكون بعد أن لم يكن، والطارئُ بعد عدمه والمعدومُ بعد وجوده: محدَث، والأجسام حادثة؛ لأنها لم تسبق الحوادثَ ولم تخلُ منها، وما لا ينفكّ من الحوادث ولم تسبقه كان محدثاً، فالعالم -إذاً- كله محدَث؛ لأنه لا يخرج عن الجواهر والأعراض. انظر: الإنصاف للباقلاني ص (١٧-١٨)، ويراجع للتوسع: الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات (١/ ٣٧٥- ٢/ ١٩٩).

والجواب عن ذلك:

❁ أن الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع ذكره لتوحيد العبادة في تعريفه للتوحيد؛ «لم يخرج عن منهج المتكلمين في إهمالهم توحيد العبادة والدعوة إليه والنهي عن ضده، واستبدالهم هذا النوع بتوحيد الأفعال»(١).

❁ أن البيجوري حينما شرح تعريفه للتوحيد لم يتطرق لبيان توحيد العبادة مطلقاً، فقد قال: «فليس هناك ذات تشبه ذاته تعالى، ولا تقبل ذاته الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً مطابقاً للواقع، ولا تشبه صفاتِه الصفاتُ، ولا تعدد فيها من جنس واحد بأن يكون له تعالى قدرتان مثلاً، ولا يدخل أفعاله الاشتراك، إذ لا فعل لغيره سبحانه خلقاً، وإن نسب إلى غيره كسباً»(٢). فخلا شرحه للتوحيد من بيان توحيد العبادة، بل خلا كتابه كله من ذلك، بل ذكر ما يستلزم مناقضته، حيث نقل عن الشعراني قوله: «ذكر لي بعض المشايخ أن الله تعالى يوكل بقبر الولي ملكاً يقضي الحوائج، وتارة يخرج الولي من قبره ويقضيها بنفسه»(٣)، ولم يتعقبه بشيء.

٢) أن تقسيمهم لم يكن مبنياً على أصول من الكتاب والسنة ودلالاتها الصحيحة، وإنما كان تقليداً لمن قبلهم من أهل الكلام والفلسفة، فإن أصل هذا التقسيم هو قول الفلاسفة الذين وصفوا الله -ﷻ- بأنه بسيط لا يتجزأ ولا يتبعض ولا ينقسم ولا يتركب لا في المعنى ولا في الكم، وجردوا الله سبحانه بذلك عن كل صفة تجعل له وجوداً خارج الذهن والتصور العقلي.

---

(١) منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٦٠٨).

(٢) تحفة المريد ص (٩).

(٣) المصدر السابق ص (١٠٨).

ليس بموحد مخلص له الدين، وإن كان مع ذلك قائلاً بهذه المقالات التي زعموا أنها التوحيد، حتى لو أقرّ بأن الله وحده خالق كل شيء -وهو التوحيد في الأفعال الذي يزعم هؤلاء المتكلمون أنه يقرر أن لا إله إلا هو، يثبتون ما توهموه من دليل التمانع[١] وغيره- لكان مشركاً»[٢].

وقد يعترض على هذا بأن في تعريفات بعض الأشاعرة للتوحيد ذكرا لتوحيد العبادة، كما في تعريف الباقلاني[٣] -وهو من متقدمي الأشاعرة- حيث قال: «التوحيد له: هو الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود، ليس كمثله شيء»[٤]، وكما في تعريف البيجوري: «وهو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتاً وصفاتٍ[٥] وأفعالاً»[٦].

---

(١) قال الباقلاني -في بيان المراد بدليل التمانع-: (يجب أن يعلم أن صانع العالم -جلت قدرته- واحد أحد...، فلو جاز أن يكون اثنين أو أكثر فيريد أحدهما شيئاً ويريد الآخر ضده: فلا يخلو: أن يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يتم مرادهما؛ لأن في إتمام مراد أحدهما عجز الآخر، لأنه تم ما لا يريد، وفي ذلك تعجيز لكل واحد منهما؛ لأنه تم ما لا يتم مراد واحد منهما، فقد ثبت عجزهما أيضاً، ومن يكون عاجزاً فليس بالإله، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر؛ فالذي تم مراده هو الإله، والذي لم يتم عاجز ليس بالإله، فلم يكن إلا إله واحد). الإنصاف ص (٣٢-٣٣)، وانظر: التمهيد في أصول الدين للنسفي ص (٦).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٧٨).

(٣) محمد بن الطيب، أبو بكر الباقلاني رأس المتكلمين على مذهب الشافعي، وهو من أكثر الناس كلاما وتصنيفا في الكلام، انتشرت عنه تصانيف كثيرة، كانت وفاته سنة (٤٠٣هـ). انظر: البداية والنهاية (١١-٣٥٠-٣٥١).

(٤) الإنصاف ص (٢٢).

(٥) في الأصل: صفاتاً، وهو خطأ.

(٦) تحفة المريد ص (٩).

الثاني: توحيد الصفات، وهو الذي عبروا عنه بقولهم: «واحد في ذاته لا قسيم له» و «واحد في صفاته الأزلية لا نظير له».

الرد على الأشاعرة والماتريدية في تقسيمهم للتوحيد:

إن الأشاعرة والماتريدية في تقسيمهم للتوحيد قد انحرفوا عن التقسيم الصحيح له، ففي تقسيمهم قصور عن بيان التوحيد الذي جاء في الكتاب والسنة وسار عليه سلف الأمة وأئمتها، وفيه -أيضاً- انحراف عن فهم التوحيد الحق، بل إطلاق التوحيد على ما هو مضاد للتوحيد الصحيح.

ففي تقسيم الأشاعرة والماتريدية انحرافات إجمالية وتفصيلية، ولبيان ذلك أقول:

أما الانحرافات الإجمالية فهي:

١) أن تقسيم الأشاعرة والماتريدية للتوحيد خلا من توحيد الألوهية الذي هو المقصد الأعلى من خلق الكون وما فيه، وهو زبدة دعوة الرسل وروحها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمقصود هنا: أن التوحيد الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله، وهو المذكور في الكتاب والسنة، وهو المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام؛ ليس هو هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها هؤلاء المتكلمون، وإن كان فيها ما هو داخل في التوحيد الذي جاء به الرسول، فهم مع زعمهم أنهم موحدون ليس توحيدهم هو التوحيد الذي ذكر الله ورسوله، بل التوحيد الذي يدّعون الاختصاص به باطل في الشرع والعقل واللغة، وذلك أن توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده، فمن عبد الله و حده لا يشرك به شيئاً فقد وحّده، ومن عبد من دونه شيئاً من الأشياء فهو مشرك به

المراد بذلك عندهم:

نفي النظير عن الله تعالى في كل صفة من صفات المعاني التي أثبتوها، فيمتنع أن يكون له تعالى علوم وقدرات متكاثرة بحسب المعلومات والمقدورات، بل علمه تعالى واحد، ومعلوماته كثيرة، وقدرته واحدة، ومقدوراته كثيرة، وعلى هذا جميع صفات المعاني.

ونفي الصفات التي توهموا بعقولهم أن إثباتها يستلزم التشبيه وينافي وحدانية الله في الصفات كالأفعال الاختيارية ورؤية الله حقيقة في الآخرة وأن القرآن كلام الله حقيقة منزل غير مخلوق.

- **قولهم: «وواحد في أفعاله لا شريك له»:**

يعنون بذلك: «انفراده تعالى باختراع جميع الكائنات عموماً، وامتناع إسناد التأثير لغيره تعالى في شيء من الممكنات أصلاً»[(١)].

وهذه الأقسام الثلاثة ترجع إلى نوعين[(٢)]:

الأول: توحيد الربوبية، وهو الذي عبّروا عنه بقولهم: «واحد في أفعاله لا شريك له». وهو أشهر النوعين عندهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث، وهو توحيد الأفعال، وهو أن خالق العالم واحد...، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: (لا إله إلا الله)، حتى يجعلوا معنى الإلهية: القدرة على الاختراع»[(٣)].

---

(١) الماتريدية للحربي ص (١٩٠).

(٢) انظر: منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٥٧٠).

(٣) التدمرية -مع التحفة المهدية- ص (٣٤٠).

والشبيه، فالله تعالى واحد في أفعاله لا يشاركه أحد في إيجاد المصنوعات، وواحد في ذاته لا قسيم له ولا تركيب فيه، وواحد في صفاته لا يشبه الخلق فيها»[١].

وقال الكمال بن أبي شريف المقدسي[٢]: «هو اعتقاد الوحدانية في الذات والصفات والأفعال»[٣].

وبحكاية أقوال الأشاعرة والماتريدية يظهر أن الفريقين يتفقان في التقسيم تعداداً ومضموناً.

شرح أقسام التوحيد عند الأشاعرة والماتريدية[٤]:

- **قولهم: «إن الله واحد في ذاته لا قسيم له»:**

يعنون بذلك:

انتفاء الكثرة عن ذاته تعالى، بمعنى: عدم قبولها الانقسام، فهي لا تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقسم.

نفي الصفات التي توهموا بعقولهم أن إثباتها يقتضي الانقسام وينافي وحدانية الذات كالوجه واليدين.

- **قولهم: «وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له»:**

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للبابرتي ص (٢٩).

(٢) محمد بن محمد بن أبى بكر بن على بن أبى شريف المقدسي، كمال الدين، أبو المعالي، عالم بالأصول من فقهاء الشافعية، نعته ابن العماد بالإمام شيخ الإسلام ملك العلماء الأعلام، درس وأفتى ببلده وبمصر، توفي سنة (٩٠٦هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٥٣).

(٣) المسامرة بشرح المسايرة ص (٤٣).

(٤) انظر: منهج السلف والمتكلمين (٢/ ٥٦٩-٥٧١).

قوله[١]: «هو الاعتقاد بأن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له»[٢].

وقال البيجوري[٣]: «ويجب في حقه تعالى: الوحدانية في الذات وفي الصفات وفي الأفعال، ومعنى الوحدانية في الذات: أنها ليست مركبة من أجزاء متعددة، ومعنى الوحدانية في الصفات: أنه تعالى ليس له صفتان فأكثر من جنس واحد كقدرتين وهكذا، وليس لغيره صفة تشابه صفته تعالى، ومعنى الوحدانية في الأفعال أنه ليس لغيره فعل من الأفعال، وضدها التعدد»[٤].

❁ تقسيمه عند الماتريدية:

ويقسم الماتريدية التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وهو ما يشير إليه البابرتي[٥] في قوله: «وعبّر بعض أصحابنا عن التوحيد فقال: هو نفي الشريك والقسيم

---

(١) محمد بن عبد الكريم بن أحمد، الشهرستاني، أبو الفتح، شيخ أهل الكلام وصاحب التصانيف، برع في الفقه، وكان كثير المحفوظ قوي الفهم مليح الوعظ، مات سنة (٥٤٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٨٦-٢٨٨).

(٢) الملل والنحل (١/ ٤٢).

(٣) إبراهيم بن محمد الباجوري، ولد سنة (١١٩٨هـ) ببلدة بيجور (قرية من قرى مصر)، ونشأ فيها في حجر والده وقرأ عليه القرآن، ثم قدم إلى الجامع الأزهر، ثم خرج وتوجه إلى الجيزة، انتهت إليه رئاسة الجامع الأزهر سنة (١٢٦٣هـ)، توفي (١٢٧٦هـ). انظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (١/ ٧-١١).

(٤) رسالة في علم التوحيد -ضمن مجموع المتون- ص (٢٧).

(٥) محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين، أبو عبد الله، الرومي البابرتي، علامة بفقه الحنفية عارف بالأدب، رحل إلى حلب ثم إلى القاهرة، وعرض عليه القضاء مرارا فامتنع، توفي بمصر سنة (٧٨٦هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٤٢).

المبحث الثاني:
أقسام التوحيد عند المخالفين لأهل السنة والجماعة

المطلب الأول: أقسام التوحيد عند الأشاعرة والماتريدية والرد عليهم

ذهب الأشاعرة[١] والماتريدية[٢] إلى تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، موافقين في ذلك أهل السنة والجماعة من حيث العدد، إلا أنهم خالفوهم إلى درجة كبيرة من حيث المضمون، وفيما يأتي ذكر أقسام التوحيد الثلاثة عند الأشاعرة والماتريدية، وشرحها، ثم الرد عليهم:

أقسام التوحيد عند الأشاعرة والماتريدية:

❁ تقسيمه عند الأشاعرة:

يقسم الأشاعرة التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وهو ما يشير إليه الشهرستاني في

---

(١) أتباع أبي الحسن الأشعري في طوره الثاني، حيث إن أبا الحسن كان على مذهب المعتزلة إلى الأربعين من عمره، ثم سلك طريقة ابن كلاب في إثبات الصفات اللازمة لله تعالى ونفي الصفات الاختيارية والقول بصحة طريقة الأعراض وتركيب الأجسام، وقد مرّت الأشعرية بمراحل: أولها زيادة المادة الكلامية على يد أبي بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ)، ثم الجنوح للمادة الاعتزالية على يد الجويني (ت: ٤٧٨هـ)، ثم خلط ذلك بالمادة الفلسفية على يد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) وأبي عبدالله الرازي (ت: ٦٠٦هـ). انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ١٤٧-١٤٨) (١٢/ ٢٠٤)، الاستقامة (١/ ٢١٢)، درء التعارض (٧/ ٩٧)، منهاج السنة (٢/ ٢٢٣-٢٢٤)، بغية المرتاد ص(٤٤٨-٤٥١).

(٢) أتباع أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي، الذي تابع ابن كلاب في مسائل متعددة من مسائل الصفات وما يتعلق بها، وتعدّ من فرق أهل الكلام من الصفاتية. انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣٣)، الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات (١/ ٢٠٩، ٢٦٢-٢٦٨).

وأضرب على ذلك مثالين:

الأول: من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً في عبادته، ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغير الله قدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله، أو أنه يملك نفع العباد أو ضرهم ونحو ذلك من خصائص الربوبية؛ لم تصح عبادته ولم تنفعه، ولا يكون بها موحّداً.

وقِس على ذلك: من أقر بالربوبية وجحد بالألوهية، أو أقر بالربوبية والألوهية وجحد حقائق أسماء الله ومعانيها أو شبّه الله بأحد من خلقه.

الثاني: من دعا غير الله سبحانه وسأله ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب نفع أو دفع ضر؛ فإنه أشرك في الإلهية؛ لأن الدعاء عبادة، وصرفه لغير الله شرك، وهو مع ذلك مشرك في الربوبية؛ لأنه اعتقد أن المدعوّ له قدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله، وهو في الوقت نفسه مشرك في الأسماء والصفات؛ لأنه لم يدعُ ذلك المخلوق إلا وقد اعتقد أنه يسمعه على البعد والقرب، في أي وقتٍ كان، وفي أي مكان.

ولم يشرك به شيئاً لابد أن يكون قد اعتقد أن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره ولا مالك له سواه، فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده، وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه، وأن كل ما يدعى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأما توحيد الأسماء والصفات، وأنه شامل للنوعين: فهو يقوم على إفراد الله سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها: كونه رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته، وكونه إلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته، فاسم «الرب» لا ينصرف إلا إليه عند الإطلاق، فله وحده الربوبية المطلقة الشاملة لجميع خلقه، وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق إلا عليه وحده، فهو ذو الألوهية على جميع خلقه، ليس لهم إله غيره»[(١)].

و «من جملتها: ...الخالق-الرازق- الملك وهذا هو توحيد الربوبية.

ومن جملتها: ...الغفور -الرحيم- التواب وهذا هو توحيد الألوهية»[(٢)].

ثانياً: وجوب الإيمان بجميع أقسام التوحيد[(٣)]:

أقسام التوحيد الثلاثة متلازمة يكمل بعضها بعضاً، ولا ينفك قسم منها عن الآخر، فيجب الإيمان بها جميعاً على ما ورد في الكتاب والسنة، ومن جاء بقسم منها دون الآخرين لم ينفعه ذلك، ومن أشرك في قسم منها فهو مشرك في البقية.

---

(١) الكواشف الجلية ص (٢٤٤-٢٤٥)، وانظر: معتقد أهل السنة ص (٤٧-٤٩)، منهج أهل السنة (١/ ١٦-١٧).

(٢) معتقد أهل السنة ص (٤٩).

(٣) انظر: معارج القبول (٢/ ٤٧٤-٤٧٥)، أعلام السنة المنشورة ص (٧٧)، الكواشف الجلية ص (٢٤٥).

المطلب الثالث: تلازم أقسام التوحيد وترابطها.

إن أقسام التوحيد[١] التي ذكرها علماء أهل السنة والجماعة -وإن كانت متفرقة فيما بينها من حيث مفهوم كلٍّ منها -إلا أنها مرتبطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً من حيث العلاقة التي تربط بعضها ببعض، ومن حيث الإيمان بها جميعاً، ونوضح ذلك بأمرين:

أحدهما: العلاقة بين أقسام التوحيد:

بين أقسام التوحيد الثلاثة علاقة تلازم وتضمن وشمول، «فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات شامل للنوعين معاً»[٢].

بيان ذلك: أن «توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة، فهو منه كالمقدمة من النتيجة، فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته؛ كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له، فإنه لا يصح أن يعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكاً مدبراً ومادام ذلك له وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده الذي لا يجوز أن يكون لأحدٍ معه شركة في شيء من صور العبادة كلها...»[٣].

وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية، ومعنى كونه متضمناً له: أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الإلهية، فإن من عبد الله وحده

---

(١) سيكون الحديث من هذا المطلب فما بعده على التقسيم الثلاثي للتوحيد.

(٢) معتقد أهل السنة ص (٤٧).

(٣) وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩١)، منهاج السنة النبوية (٣/ ٣١٣).

٢) أن الاختلاف في طريقة التقسيم إنما جاء مراعاة لاعتبار معين:

- فتقسيم التوحيد إلى قسمين فيه مراعاة لاعتبار ما يجب على الموحد من العلم والعمل، فجاء التقسيم إلى جانبين: علمي وعملي.

- وتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام فيه مراعاة لاعتبار متعلَّق التوحيد، فجاء تقسيمه إلى الربوبية والأسماء والصفات والألوهية.

وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يشملهما الجانب العلمي، وتوحيد الألوهية هو الجانب العملي، فاتفق التقسيمان في المضمون.

٣) أن من أئمة أهل السنة من يكون في كلامه استعمال التقسيمين، فمضمون التقسيمين -إذاً- واحد عندهم.

المطلب الثاني: تقسيمات أهل السنة والجماعة للتوحيد متفقة في المضمون.

إن تقسيم علماء أهل السنة والجماعة للتوحيد إلى قسمين أو إلى ثلاثة أقسام؛ ليس فيه منافاة بين التقسيمين، ولا مناقضة بين الطريقتين، بل هما متفقتان في المضمون، مجتمعتان في المدلول، والخلاف بينهما في طريقة التقسيم، وتعداد الأقسام إنما هو مجرد خلاف في الألفاظ، وتنوع في العبارات والتعبيرات، ويقرر ذلك ما يأتي[(١)]:

١) أن من قسم التوحيد إلى قسمين قد جعل القسم الأول -وهو توحيد المعرفة والإثبات أو ما عبَّر به عنه- شاملاً لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وذلك بالنظر إلى كونهما يشكلان بمجموعهما جانب العلم بالله ﷻ. بينما جعل القسم الثاني -وهو توحيد القصد والطلب أو ما عبَّر به عنه- في مقابل توحيد الألوهية[(٢)].

فظهر أن التقسيمين يشتملان على الأنواع نفسها، ولكن أحدهما فصَّل والآخر أجمل لاعتبار معيّن، وهو ما سيأتي بيانه.

---

(١) انظر: سبيل الهدى والرشاد ص (٤٣)، معتقد أهل السنة ص (٤٤).

(٢) على أنه قد ورد عن ابن القيم ما يخالف ذلك في ظاهره، فقد ذكر في مدارج السالكين (١/ ٢٤-٢٥) أن التوحيد القصدي الإرادي نوعان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وقد حاول الشيخ الشمس السلفي توجيه ذلك فقال (الماتريدية ٢/ ٣٩٦): «ولعل وجهه: أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، كما أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية». قلت: وتوجيهه لا يزيل الإشكال -من وجهة نظري-؛ لأن ما ذكره لا يقتضي إدخال توحيد الربوبية -وهو جانب علمي- مع توحيد الألوهية -وهو جانب عملي- في قسم واحد، مع إفراد توحيد الأسماء والصفات -وهو جانب علمي- بقسم مستقل، فالله أعلم.

الاضطراد، فيقال -مثلاً-: توحيد التوكل قسم من أقسام التوحيد، وتوحيد المحبة قسم من أقسام التوحيد ... وهكذا، وذلك -كما هو ظاهر- غير صحيح، يُضاف إلى ذلك: أن كل قسم من أقسام التوحيد الثلاثة قسيم للآخر، فلا يصح أن يؤخذ فردٌ يندرج تحت أحد الأقسام ليجعل قسيماً لها؟.

هذا ما يتعلق بجعل ما يسمى بتوحيد الحاكمية قسماً من أقسام التوحيد، وأما ما يتعلق بجعله معنى (لا إله إلا الله) فيُردّ بالوجهين الآتيين:

١- أنّ ما يسمّى بتوحيد الحاكمية لو كان هو المقصود بـ (لا إله إلا الله)؛ لما كان بين الرسول ﷺ والمشركين نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابة الرسول ﷺ إذا قال لهم: تحاكموا إلى الشريعة في الدماء والأموال والحقوق، وسكت عن العبادة. ولكن القوم أهل اللسان العربي، فعلموا أن حقيقة معنى (لا إله إلا الله) هي: الكفر بكل ما يعبد من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده، ولذا قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

٢- أن العبد لو تحاكم إلى الشريعة في الحقوق والحدود والخصومات، وحصل له -مع ذلك- شرك في العبادة؛ لم ينفعه ذلك التحاكمُ للحكم عليه بالتوحيد، ولم يمنع من الحكم عليه بالشرك.

بـ«**توحيد الحاكمية**»، ويعنون بذلك: وجوب تطبيق شرع الله، والتحاكم إليه. ومنهم من يغلو فيه -بهذا المفهوم- حتى يجعله هو التوحيد الذي هو معنى (لا إله إلا الله)، فيقول: لا حاكم إلا الله.

وهذا الأمر بشقّيه -أعني: جعل ما يسمى بتوحيد الحاكمية قسماً من أقسام التوحيد، والغلو في إثباته حتى يجعل هو التوحيد-: تصرف خاطئ من عدة أوجه[(١)]:

١) أن هذا القسم -بهذا المفهوم- يتضمنه توحيد الألوهية، فإن من مقتضى (لا إله إلا الله): قبول تشريع الله في العبادات والمعاملات والتحليل والتحريم، ورفض تشريع من سواه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، فوجوب التحاكم إلى شرع الله: موجود في أقسام التوحيد الثلاثة التي ذكرها علماء أهل السنة والجماعة، فلا داعي لإفراده بقسم مستقل.

٢) أن علماء أهل السنة والجماعة ممن لم يعتبر ما يسمى بـ «توحيد الحاكمية» قسماً من أقسام التوحيد؛ لاشك أنهم كانوا أعلم وأفقه، فزيادة نوع مستقل على ما ذكروه فيه نوع استدراك عليهم، إضافة إلى أن ذلك يفضي إلى أن يقوم كل من شاء بزيادة قسم مستقل، مع أن ما يزيده قد يكون داخلاً في قسمٍ ذكره علماء أهل السنة والجماعة -كما هي الحال هنا-.

٣) أنه لا يصح أصلاً جعل التحاكم إلى الشريعة -وهو داخل في إفراد توحيد الألوهية- قسماً مستقلاً برأسه من أقسام التوحيد، لأنه يلزم من ذلك

---

(١) انظر: معنى (لا إله إلا الله) ص (٢٢-٢٣)، سبيل الهدى والرشاد ص (٦٥-٦٦).

والمقصود بهذا القسم الرابع: تجريد المتابعة للنبي ﷺ. و «لعل مقصود من أفرد الاتباع بقسم مستقل هو إبراز أهميته وتعظيم شأنه؛ نظراً لانصراف الناس عنه»[(١)]، أو لعله نظر إلى الشهادتين اللتين لا يصير العبد موحداً إلا بتحقيقهما، فإن شهادة أن لا إله إلا الله: تشمل أنواع التوحيد الثلاثة الأولى، وشهادة أن محمداً رسول الله: يدخل في ضمنها تجريد المتابعة له ﷺ، ولعل هذا هو ما نظر إليه الدكتور حسن بن علي العواجي حين عرف التوحيد بقوله: «هو إفراد الله بربوبيته وألوهيته دون سواه، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، والاعتقاد برسالة محمد ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، واتباعه فيما جاء به عن الله تعالى»[(٢)].

إلا أن «هذا القسم في الحقيقة داخل ضمن توحيد الألوهية؛ لأن العبادة لا تقبل شرعاً إلا بشرطين هما:

١) الإخلاص.

٢) الاتباع. كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]»[(٣)]، ومن ثمَّ فلعل الأولى -والله أعلم- هو الاقتصار على ما ورد عن العلماء السابقين من تقسيم التوحيد إلى قسمين أو إلى ثلاثة أقسام.

هذا، وقد يوجد في كلام بعض الناس جعْل القسم الرابع ما يسمونه

---

(١) معتقد أهل السنة ص (٤٣).

(٢) شرح نواقض التوحيد ص (٩).

(٣) معتقد أهل السنة ص (٤٣).

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله ﷻ جميع أسمائه وصفاته، مع الإيمان بما تضمنته من المعاني، وبما يترتب عليها من مقتضيات وأحكام.

الثاني: نفي المماثلة، وذلك بأن لا يجعل لله مثيل في أسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٣) توحيد الألوهية أو الإلهية:

وهو إفراد الله ﷻ بأفعال العباد التعبدية الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى كائناً من كان[(١)].

فهذا التوحيد قائم على أمرين لا انفكاك لأحدهما عن الآخر شرعاً، وهما:

النفي: نفي الإلهية الحقة عما سوى الله.

والإثبات: إثبات الإلهية الحقة لله وحده لا شريك له.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله).

تقسيم التوحيد قسمة رباعية:

ومن المتأخرين من أهل العلم من زاد على الأقسام الثلاثة السابقة قسماً رابعاً، فصار التقسيم عنده كالتالي:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الأسماء والصفات.

٣- توحيد الألوهية.

٤- توحيد الاتباع.

---

(١) انظر: أعلام السنة ا لمنشورة ص (٥١)، معتقد أهل السنة ص (٤٢).

تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، كما أن هذا التوحيد مبني على إخلاص العمل لله وحده.

❁ **توحيد العبادة:** لأنه مبني على إخلاص العبادة لله سبحانه.

تقسيم التوحيد قسمة ثلاثية:

ومن علماء أهل السنة والجماعة من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

وهذه الأقسام هي:

١) توحيد الربوبية:

وهو: إفراد الله بأفعاله من الخلق والملك والتدبير[(١)].

فالله سبحانه هو الخالق لا خالق سواه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣]، وهو المتفرد بملك الخلق، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وهو سبحانه منفرد بالتدبير، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[الأعراف: ٥٤].

٢) توحيد الأسماء والصفات:

وهو «إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها»[(٢)].

وهذا يتضمن شيئين[(٣)]:

---

(١) انظر: القول المفيد (١/ ٥)، معتقد أهل السنة ص (٤٢).

(٢) معتقد أهل السنة ص (٣١).

(٣) انظر: القول المفيد (١/ ١٢)، معتقد أهل السنة ص (٣٩)، أعلام السنة المنشورة ص (٥٧-٥٨).

من الأسماء والصفات والأفعال.

❁ **التوحيد في العلم، التوحيد العلمي، توحيد العلم**: لأنه يعتني بجانب معرفة الله والعلم به سبحانه.

❁ **التوحيد في الاعتقاد**: لأنه يعتني بجانب ما يجب على العبد اعتقاده في أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

❁ **التوحيد** القولي، **في القول، توحيد قولي**: لأنه في مقابل جانب العمل من التوحيد، فهذا الجانب مختص بالجانب القولي العلمي.

❁ **التوحيد الخبري**: لأنه يتوقف على الخبر (أي: الكتاب والسنة).

❁ **توحيد السيادة**: لأن تفرد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته يوجب له السيادة المطلقة والتصرف التام في هذا الكون خلقاً ورزقاً وإحياءً وإماتة وتصرفاً وتدبيراً سبحانه وتعالى، فمن واجب الموحد أن يفرد الله بذلك.

❁ **توحيد القصد والطلب**، التوحيد في القصد، التوحيد القصدي، التوحيد الطلبي: لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، فالعبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه بالعبادة لله وحده رغبة ورهبة، ويقصد بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته.

❁ **التوحيد في الإرادة، التوحيد الإرادي**: لأن العبد له في العبادة إرادة، فهو إما أن يقوم بتلك العبادة أو لا يقوم بها، كما أن هذا التوحيد مبني على إرادة وجه الله بالأعمال.

❁ **التوحيد في العمل، توحيد العمل، التوحيد العملي، التوحيد الفعلي**: لأنه يشمل كلاً من عمل القلب وعمل اللسان وعمل الجوارح التي

- التوحيد في العلم والقول.
- التوحيد القولي.
- التوحيد العلمي الخبري.
- توحيد العلم.
- توحيد علمي اعتقادي.
- توحيد قولي اعتقادي.
- توحيد السيادة.

تعبيراتهم عن القسم الثاني:

- توحيد القصد والطلب.
- التوحيد في الإرادة والقصد.
- التوحيد القصدي الإرادي.
- التوحيد في الإرادة والعمل.
- توحيد العمل.
- التوحيد العملي.
- التوحيد الفعلي.
- التوحيد الإرادي الطلبي.
- توحيد العبادة.

وفيما يلي شرح للألفاظ الواردة في هذه التعبيرات:

❁ **توحيد المعرفة والإثبات**: سمي بذلك لأن معرفة الله ﷻ إنما تكون بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والإثبات: أي: إثبات ما أثبته الله لنفسه

المبحث الأول
أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة

المطلب الأول: منهج أهل السنة والجماعة في تقسيم التوحيد

تنوعت طرق علماء أهل السنة والجماعة في ذكر أقسام التوحيد: فمنهم من قسم التوحيد إلى قسمين، ومنهم من قسمه إلى ثلاثة أقسام، ومنهم من زاد قسماً رابعاً، «ولعل السبب في ذلك هو أن تلك التقسيمات مأخوذة من استقراء النصوص، ولم ينصّ عليها باللفظ مباشرة»[(١)]، وفيما يلي ذكر تلك التقسيمات:

تقسيم التوحيد قسمة ثنائية:

قسَّم جماعة من علماء أهل السنة والجماعة: التوحيد قسمة ثنائية، «وهذا هو الأغلب في كلام أهل العلم المتقدمين»[(٢)]، وقد تنوعت عباراتهم في التعبير عن ذينك القسمين على النحو التالي[(٣)]:

تعبيراتهم عن القسم الأول:

- توحيد المعرفة والإثبات.
- التوحيد في العلم والاعتقاد.
- التوحيد العلمي.

---

(١) معتقد أهل السنة ص (٤٢).

(٢) المصدر السابق ص (٤٣).

(٣) انظر: الماتريدية للشمس الأفغاني (٢/ ٣٩٤-٣٩٥)، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند كل قسم: من قال به من أهل العلم. وانظر أيضاً: معتقد أهل السنة ص (٤٣-٤٦)، وشرح أقسام التوحيد مأخوذ منه ومن: تيسير العزيز الحميد ص (٣٨).

الفصل الأول

أقسام التوحيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة

المبحث الثاني: أقسام التوحيد عند المخالفين لأهل السنة والجماعة

٥) جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

٦) الحق وأهله.

وهذه الأقوال الستة ترجع إلى معنيين:

أحدهما: الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وهو القول الخامس.

الثاني: الاجتماع على الحق الذي جاء به النبي ﷺ، ويدخل في ذلك: الأقوال الخمسة الباقية، فإن الصحابة ﷺ هم أعظم الناس تمسكاً بالحق، وهم السواد الأعظم في وقتهم، ومَن بعدهم مِن أهل العلم المجتهدين إنما هم متبعون لهم، ومقتفون لآثارهم في التمسك بآثار النبي ﷺ وطريقته، وهم بذلك السواد الأعظم وإن كانوا قلة في العدد.

والمعنى الأول يعود إلى الثاني؛ لأن من الحق الذي جاء به النبي ﷺ: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم وعدم الخروج عليه.

المراد بأهل السنة والجماعة:

على ضوء ما تقدم يمكن تعريف أهل السنة والجماعة اصطلاحاً بأنهم «الذين تمسكوا بالسنة (الحق الذي جاء به النبي ﷺ)، واجتمعوا عليها، ولم يلتفتوا إلى سواها، لا في الأمور العلمية العقدية، ولا في الأمور العملية الحكمية»[(١)]، وهم «الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان من العلماء المجتهدين السائرين على منهج الكتاب والسنة، ومن تبعهم في ذلك، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»[(٢)].

---

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين (١/ ٣٧).

(٢) منهج أهل السنة (١/ ٢٣)، وانظر: معتقد أهل السنة ص (٦٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلفظ (أهل السنة) يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة.»[(١)].

وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الإطلاق يشتهر عند العامة، وذلك لكون الرافضة أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة، وأكثرهم مخالفة للأحاديث النبوية ولمعاني القرآن، وأكثرهم قدحاً في سلف الأمة وأئمتها، وطعناً في جمهور الأمة من جميع الطوائف، حتى أن جمهور العامة لا يعرفون ضد السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سني؛ فإنما معناه: لست رافضياً[(٢)].

تعريف الجماعة اصطلاحاً:

وردت جملة من الأحاديث عن النبي ﷺ فيها الحث على لزوم الجماعة، والتحذير من مخالفتها ومفارقتها، وقد اختلف أهل العلم في معنى الجماعة في تلك الأحاديث على ستة أقوال، هي[(٣)]:

١) السواد الأعظم من أهل الإسلام.

٢) جماعة أئمة العلماء المجتهدين.

٣) الصحابة على الخصوص.

٤) جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر.

=

منهاج السنّة النبوية (١/ ٣٤)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (١/ ٣٤٤).

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٦) و (٤/ ١٥٥).

(٣) انظر: الاعتصام ص (٤٤٨-٤٥٢)، وسطية أهل السنة ص (٩٣-٩٦)، المباحث العقدية في حديث افتراق الأمم (٣/ ١٢٤٣-١٣٤٤).

بما كان عليه هو ﷺ وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله»[(١)].

وهذا الذي ذكره الشاطبي وابن رجب في معنى السنة، هو أحد مدلولين لعبارة: «أهل السنة»، فإن هذه العبارة وردت في استعمال العلماء لمعنيين، هما[(٢)]:

١) **إطلاق (أهل السنة) فيما يقابل أهل البدع**، وهذا هو الذي تقدم في كلام الشاطبي وابن رجب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)]: «والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السنة والجماعة، كما يقال: أهل البدعة والفرقة»[(٤)]، «فيخرج من هذا المعنى: كل طوائف المبتدعة وأهل الأهواء»[(٥)].

٢) **إطلاق أهل السنة فيما يقابل الرافضة**[(٦)]:

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٣٥٩)، وانظر: وسطية أهل السنة ص (٣٢).

(٢) انظر: وسطية أهل السنة ص (٤٦-٤٨)، معتقد أهل السنة ص (٦٣-٦٥).

(٣) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الدمشقي، الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الإسلام، ولد سنة (٦٦١هـ)، كان إماماً في التفسير والفقه والحديث والأصول والفروع والنحو واللغة والعلوم العقلية والنقلية، توفي سنة (٧٢٨هـ). انظر: البداية والنهاية (١٤/ ١٣٥-١٣٩).

(٤) الاستقامة (١/ ٤٢).

(٥) معتقد أهل السنة ص (٦٣).

(٦) عَلَم على تلك الطائفة التي ترفض إمامة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويتبرؤون منهما ومن أكثر الصحابة رضي الله عنهم، ويسبونهم، وينتقصونهم، ويزعمون أن الإمامة لعلي رضي الله عنه وذريته بالنص، وأن إمامة غيره باطلة، ورفضوا زيد بن علي بن الحسين في خلافة هشام بن عبدالملك لأنه لم يوافقهم على ذلك، ثم تطوّر مذهبهم حتى طعنوا في القرآن وادّعوا لأئمتهم من المناقب والمزايا ما لا يكون إلا لله أو لرسله وغير ذلك من العقائد الفاسدة المنحرفة. انظر: =

المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي لأهل السنة والجماعة

تعريف السنة اصطلاحاً:

«يختلف معنى السنة في الاصطلاح عند كلٍّ من المحدثين والأصوليين والفقهاء وعلماء الوعظ وأصول الدين، وإن كان الجميع يتفق على أنها سنة النبي ﷺ، وإنما وقع الاختلاف عند التفصيل والتحديد، ومردّ هذا الاختلاف في المعنى الاصطلاحي للسنة إلى اختلافهم في الأغراض التي يعنى بها كل فئة من أهل العلم»[(١)].

والذي يعنينا هنا هو إطلاق السنة في أبواب الاعتقاد، ومن ذلك: إطلاقها على ما يقابل البدعة.

قال الشاطبي[(٢)]: «ويطلق -أي: لفظ السنة- أيضاً في مقابل البدعة، فيقال: فلان على سنة؛ إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ كان ذلك مما نص عليه في الكتاب أو لا، ويقال: فلان على بدعة؛ إذا عمل على خلاف ذلك»[(٣)].

وقال ابن رجب[(٤)]: «والسنة هي الطريقة المسلوكة، فيشمل ذلك التمسك

---

(١) وسطية أهل السنة ص (٣٠)، وانظر لبيان مصطلح السنة عند مختلف فئات أهل العلم: شرح الكوكب المنير (٢/ ١٥٩-١٦٠)، وسطية أهل السنة ص (٣٠-٣٢).

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ، كان من أئمة المالكية، توفي سنة (٧٩٠هـ). انظر: الأعلام (١/ ٧٥).

(٣) الموافقات (٤/ ٣-٦).

(٤) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي، الشيخ المحدث الحافظ زين الدين، ولد سنة (٧٠٦هـ)، أكثر من المسموع، وأكثر الاشتغال حتى مهر، وقرأ القرآن بالروايات وأكثر عن الشيوخ، مات سنة (٧٩٥هـ). انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣/ ١٠٨-١٠٩).

«الجمع: تأليف المتفرق»[١].

والجماعة -في الأصل- «بمعنى الاجتماع، فهي اسم مصدر...، ثم نقلت من هذا الأصل إلى القوم المجتمعين»[٢]، والمراد هنا هو الاجتماع.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن المدلول اللغوي لأهل السنة والجماعة هو: أخص الناس بالسيرة المحمودة المستقيمة التي ابتدأها النبي ﷺ، والمجتمعون عليها[٣].

(١) القاموس ص (٩١٧).

(٢) شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (١/ ٥٢)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٧).

(٣) انظر: وسطية أهل السنة ص (٤٦)، شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (١/ ٥٢-٥٣).

معنى كلمة «السنة» لغة:

السنة: مصدر من الفعل «سَنَّ»، يقال: «سَنَّ، يسُنّ، سُنَّة وسَنًّا»، و«السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل: قولهم: سننت الماء على وجهي، أَسُنُّه سَنًّا: إذا أرسلته إرسالاً...، ومما اشتق منه: السنة، وهي السيرة...، وإنما سميت بذلك لأنها تجري جرياً»[(١)].

فالسنة في اللغة: هي السيرة والطريقة، ولكن اختلف أهل اللغة: هل هي السيرة مطلقاً، أو هي السيرة الحسنة؟، فمنهم من قال: «السنة: السيرة، حسنةً كانت أو قبيحة»[(٢)]، ومنهم من قيدها فقال: «السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة»[(٣)] إلا أن المناسب هنا هو التقييد.

والسنة -هنا- بمعنى اسم المفعول، فإن «السنة في الأصل: سنة الطريق، وهو طريق سَنَّه أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم، وسَنَّ فلان طريقاً من الخير يسنّه: إذا ابتدأ أمراً من البر لم يعرفه قومه فاستسنوا به وسلكوه»[(٤)].

ثالثاً: معنى كلمة «الجماعة» لغة:

الجماعة: أصلها من الجمع، و«الجيم والميم والعين: أصل واحد يدل على تضام الشيء»[(٥)]، تقول: «جمعت الشيء: إذا جئت به من ههنا وههنا»[(٦)]، و

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٦٠-٦١).
(٢) لسان العرب (١٣/ ٢٢٥).
(٣) المصدر السابق (١٣/ ٢٢٦).
(٤) لسان العرب (١٣/ ٢٢٦).
(٥) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٧٩).
(٦) لسان العرب (٨/ ٥٣).

تمهيد
التعريف بأهل السنة والجماعة لغة واصطلاحاً

المطلب الأول: المدلول اللغوي لأهل السنة والجماعة

معنى كلمة «أهل» لغة:

الهمزة والهاء واللام أصلان متباعدان:

أحدهما- الأهل. فَأهل الرجل: زوجه، وأخص الناس به، وأهل البيت: سكانه، وأهل الإسلام: من يدين به.

والأصل الآخر: الإهالة، وهي الإلية ونحوها[١].

والأصل المناسب لما نحن بصدد تعريفه هو الأول.

وعند التأمل في الأمثلة التي تدخل تحت الأصل الأول؛ نجد أن أقربها هو: أن أهل الرجل: أخص الناس به، وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله أهلين من الناس) قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: (هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته)[٢]. ومعناه: «حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله والمختصون به اختصاص أهل الإنسان به»[٣].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ١٥٠-١٥١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالأرقام الآتية: (١٢٣٠٤، ١٢٣١٧، ١٣٥٧٦)، وابن ماجه (المقدمة، باب في فضل من تعلم القرآن وعلمه، ١/ ١٤٠، رقم: ٢١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٤٣٢) رقم (٢١٦٥).

(٣) النهاية (١/ ٨٣).

منهج البحث:

سرت أثناء عملي في البحث على الأمور الآتية:

١) عزوت الآيات إلى أماكنها بذكر السورة ورقم الآية.

٢) خرجت الأحاديث الواردة في البحث.

- فما كان في الصحيحين أو أحدهما: اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما.

- وما كان في غيرهما: عزوته إلى من أخرجه -غير ملتزم الاستيعاب-، مع ذكر الحكم على الحديث.

٣) نقلت الأقوال من مصادرها الأصيلة.

٤) ثمة كتب تكررت الإحالة إليها، ونظراً لطول عناوينها فقد قمت باختصار أسمائها، وفيما يلي بيان بهذه الكتب:

- سبيل الهدى والرشاد في بيان حقيقة توحيد رب العباد: سبيل الهدى والرشاد.

- القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد: القول السديد.

- معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات: معتقد أهل السنة.

- منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى: منهج أهل السنة.

- منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل: منهج السلف والمتكلمين.

- وسطية أهل السنة بين الفرق: وسطية أهل السنة.

المبحث الأول: الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: دلالة أسماء الله تعالى على أقسام التوحيد.

المطلب الثاني: دلالة فاتحة الكتاب على أقسام التوحيد.

المطلب الثالث: دلالة سورة الناس على أقسام التوحيد.

المطلب الرابع: دلالة سورتي الكافرون والإخلاص على أقسام التوحيد.

المطلب الخامس: دلالة بعض آيات القرآن منفردة على أقسام التوحيد.

المطلب السادس: دلالة دعاء القيام من الليل على أقسام التوحيد.

المطلب السابع: دلالة استقراء نصوص الكتاب والسنة على أقسام التوحيد.

المبحث الثاني: شبه المنكرين لتقسيم التوحيد عند أهل السنة والجماعة والرد عليهم.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: شبهة أن تقسيم التوحيد لم يَرِدْ في الكتاب والسنة.

المطلب الثاني: شبهة أن تقسيم التوحيد لم يعرفه السلف.

المطلب الثالث: شبهة أن تقسيم التوحيد أمر اصطلاحي لا حقيقة شرعية.

المطلب الرابع: شبهة أن توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية نفسه.

❁ **وأما الخاتمة**: فذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

❁ **وأما التمهيد**: فهو في التعريف بأهل السنة والجماعة لغة واصطلاحاً.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المدلول اللغوي لأهل السنة والجماعة.

المطلب الثاني: المدلول الاصطلاحي لأهل السنة والجماعة.

❁ **وأما الفصل الأول**: فهو بعنوان: أقسام التوحيد.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منهج أهل السنة والجماعة في تقسيم التوحيد.

المطلب الثاني: تقسيمات أهل السنة والجماعة للتوحيد متفقة في المضمون.

المطلب الثالث: تلازم أقسام التوحيد وترابطها.

المبحث الثاني: أقسام التوحيد عند المخالفين لأهل السنة والجماعة.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أقسام التوحيد عند الأشاعرة والماتريدية والرد عليهم.

المطلب الثاني: أقسام التوحيد عند الصوفية والرد عليهم.

❁ **وأما الفصل الثاني**: فهو بعنوان: الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد، والرد على شبه المنكرين لتقسيمهم.

وفيه مبحثان:

الثقلين، وكانت دعوة الرسل قاطبة لتحقيقه، ولا سعادة ولا فلاح إلا باعتقاده والإيمان به.

٢) أن تقسيم التوحيد الصحيح من الأمور المتقررة عند أهل السنة والجماعة، والإيمان بمضمونه من أصولهم، فهذا البحث جهد يسير لبيانه عندهم، وإقامة الأدلة على صحته.

٣) أن طرق أهل السنة والجماعة تنوعت في تقسيم التوحيد، فيظن من لم يفقه حقيقة تقسيمهم أنهم متنازعون فيما بينهم في ذلك؛ فكان من الواجب إيضاح حقيقة تلك التقسيمات وأنها متفقة في المضمون.

٤) أن من أهل الباطل من ابتدعوا لأنفسهم تقسيماً خاصاً للتوحيد، وادعوا أنه هو الحق؛ فلابد من بيان بطلان ما ذهبوا إليه حمايةً لحقيقة التوحيد ونصرة له وذبًّا عنه.

٥) أن أهل البدع أرادوا الطعن في التقسيم الصحيح للتوحيد بإثارة الشبه حوله؛ فمن الواجب تفنيد شبههم وبيان وهائها.

٦) أن هذا الموضوع لم أجد من استوفى جميع جوانبه وأطرافه في بحث واحد، وقد يوجد بعضه في بحثٍ أو كتابٍ دون بعضه الآخر، فأردت أن ألمّ شتاته وأجمع متفرّقه في هذا البحث؛ ليكون في متناول يد كلّ طالب علم.

خطة البحث:

يحتوي البحث على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

❁ **أما المقدمة**: فتشتمل على: الافتتاحية، وموضوع البحث، وأهميته، وخطة البحث، والمنهج الذي اتبعته فيه.

إلا باعتقادها، ولا يسلم له إلا بترك أضدادها.

ولم يزل العلماء وأهل الحق يتناقلون ذلك ويؤمنون به خلفاً عن سلف، وهو عندهم من أمور الاعتقاد التي لا مجال للخلاف في وجوب الإيمان بمضمونها، ومن الأسس التي يجب تقريرها والدعوة إليها والذب عن حياضها، ومن الأصول التي ينعقد الولاء لمن آمن بمضمونها، والبراء ممن خالفها منكراً لمدلولها.

إلا أن أهل الباطل الذين جرفتهم البدع والأهواء، واعتمدوا على العقول والآراء؛ لم يرضوا بذلك التقسيم الصحيح، واعتقدوا ما تميل إليه عقولهم وأهواؤهم، فابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان، أو فيه حق يسير وغالبه خطأ وبطلان، ثم شحذوا هممهم، وبذلوا جهودهم؛ لمحاربة التوحيد الحق وأقسامه، وإثارة الشبه لهدمه وردِّه، ولكن الله ناصرٌ دينه، ومُعْلٍ كلمته، ومظهرٌ أولياءه، ولو كره المبتدعة الضالون.

فرأيت أن أكتب بحثاً في هذا الجانب، أبيّن فيه أقسام التوحيد عند أهل السنة وأدلتهم الصحيحة عليه، وأقسام التوحيد عند المخالفين لهم وما في تقسيمهم إياه من الخروج عن هدي الكتاب والسنة ومخالفة ما كان عليه الصحابة وسلف الأمة، وسمّيته:

«أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة والمخالفين لهم».

أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه:

تبرز أهمية الموضوع من خلال النقاط التالية:

١) أنه يتعلق بالتوحيد الذي خلق الله الخلق من أجله، وأوجبه على

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.أما بعد:

فإن الله تعالى أكرم هذه الأمة بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس، أرسل إليها خير رسله، وأنزل عليها أفضل كتبه، وجعل دينها آخر الأديان السماوية وناسخاً لها، وجعله كاملاً من جميع الوجوه، فلا طريق إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا باتباعه، والشر كل الشر في تركه والإعراض عنه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وإن أعظم مباني هذا الدين وأركانه، وأجلها قدراً، وأكثرها نفعاً وأجراً: هو توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وقد قرّر الله هذا التوحيد في كتابه الكريم أتم تقريرٍ بالأدلة المتكاثرة والدلالات المتنوعة، وبينه النبي ﷺ في سنته المطهرة بياناً وافياً شافياً، وكان سلفنا الصالح يصرفون جلّ عنايتهم له من خلال نصوص الكتاب والسنة: يدرسونها ويتأملون فيها، ويستخرجون منها الدلائل على حقيقة التوحيد وغايته، وفائدته وثمرته، وطرق تحقيقه وأدلته...إلى غير ذلك مما له صلة بالتوحيد وتعلّق به.

وإن مما بينه سلفنا الصالح وقرّروه، وأقاموا عليه الأدلة وأظهروه: أن التوحيد الذي أوجبه الله على العبيد ينقسم إلى أقسام؛ لا يصح للعبد توحيده

The first of them mentions the proofs of the People of the Sunnah for their categorization from: The Qur'aan- such as Soorah Faatihah, the verse of the Footstool, and the two last chapters of the Qur'aan-, and the Sunnah- such as the supplication in the nigh prayer-, and from the general understanding of these texts.

The second sub-chapter consists of a criticism of the doubts of those who deny the categorization of Tawheed, whether they denied the existence of the categorization in the Qur'aan and the Sunnah and claimed that it is innovated, or they denied it being narrated in the speech of our pious predecessors, or they claimed that it is merely a terminological categorization.

The conclusion of the research mentions its main results.

Research Summary

The greatest of foundations and pillars of the Religion, the most noble of them in status, and the most beneficial and rewarding of them is Tawheed: to single Allah –the Most High- with all worship. The proofs from the Qur'aan and the Sunnah show that Tawheed, that which Allah has made obligatory upon His servants, is divided in three categories: Singling Allah alone in His Lordship, Worship, and His Names and Attributes. The Tawheed of the servant is not sound until s/he believes in all of these categories nor is it acceptable except by staying away from all that which opposes them.

This research clarifies the categories of Tawheed according to The People of Sunnah and according to those whom oppose them in two chapters:

The first chapter is on the categories of Tawheed and it consists of two sub-chapters:

The first of them clarifies the methodology of the People of the Sunnah in categorizing Tawheed: Even though they may differ whether it is divided into two or three categories the two opinions lead to the same conclusion, as it was mentioned before that they are interconnected. Hence, it is obligatory to believe in all of them and it is not sufficient to believe in one and not the other, nor is it sufficient to single Allah in some while associating partners with Him in others.

The second sub-chapter mentions the categories of Tawheed according to the Asharis and Sufis and how their categorization opposes the guidance of the Qur'aan, the Sunnah, the noble Companions, and the pious predecessors.

The second chapter consists of the proofs supporting the categorization of Tawheed according to the People of the Sunnah and a criticism of the doubts of those who deny their categorization. This chapter also consists of two sub-chapters.

التقسيم في الكتاب والسنة وادّعى أنه محدَث، أو أنكر وروده في كلام السلف، أو ادّعى أنه مجرد تقسيم اصطلاحي.

وخُتِم البحث بذكر أهم نتائجه.

ملخص البحث

أعظم مباني هذا الدين وأركانه، وأجلها قدراً، وأكثرها نفعاً وأجراً: توحيد الله تعالى، وقد دلت أدلة الكتاب والسنة على: أن التوحيد الذي أوجبه الله على العبيد ينقسم إلى أقسام، هي: توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ولا يصح للعبد توحيده إلا باعتقادها، ولا يَسْلَم له إلا بترك أضدادها.

ويأتي هذا البحث لبيان أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة والمخالفين لهم، وذلك في فصلين:

فالفصل الأول في أقسام التوحيد، واشتمل على مبحثين:

أولهما في بيان مناهج أهل السنة في تقسيم التوحيد، وأنها -وإن تعددت في تقسيم التوحيد تقسيماً ثنائياً أو ثلاثياً- فإنها متفقة في المضمون، كما تمّ التنبيه على أن أقسام التوحيد بينها تلازم وترابط، فيجب الإيمان بها جميعاً، ولا يُغني الإيمان بأحدها مع ترك غيره، أو الإيمان ببعضها مع وجود الشرك في غيره.

وجاء المبحث الثاني في بيان أقسام التوحيد عند الأشاعرة والصوفية، وما في تقسيمهم إياه من الخروج عن هدي الكتاب والسنة ومخالفة ما كان عليه الصحابة وسلف الأمة.

والفصل الثاني في الأدلة على صحة تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد، والرد على شبه المنكرين لتقسيمهم. واشتمل على مبحثين أيضاً:

أولهما في بيان أدلة أهل السنة على تقسيم التوحيد من: القرآن ـ كسورة الفاتحة، وآية الكرسي، والمعوِّذات ـ والسنة ـ كدعاء القيام من الليل ـ والاستقراء.

وثانيهما في الرد على شُبَه من أنكر تقسيم التوحيد، سواء أنكر وجود

أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة والمخالفين لهم

د. أحمد سردار محمد مهر الدين شيخ

باحث باكستاني، حاصل على الدكتوراه من قسم العقيدة
بالجامعة الإسلامية

الفرق بين الضرورة والاضطرار: ٦٨
دليل الضرورة على معرفة الله ٦٩
دليل الاضطرار: ٧١
أقسام الناس فيه: ٧٢
أدلة ما ذكر آنفاً: ٧٣
من حوادث الرجوع إلى الله وقت الضرورة: ٧٥
المبحث الخامس: معرفة الله بالله: ٧٧
المبحث السادس: إجماع الأمم ٨٢
المبحث السابع: دلالة معجزات الأنبياء والكتب المنزلة ٨٤
أولا: تعريف المعجزة: ٨٤
ثانيا: وصف المعجزة في النصوص الشرعية: ٨٥
ثالثا: كيف كانت معجزات الأنبياء دليلا على تفرد الله جل جلاله بالربوبية: .. ٨٧
رابعا: أمثلة على معجزات الأنبياء: ٨٩
المبحث الثامن: دليل التمانع ٩٢
الخاتمة ٩٦
فهرس المراجع والمصادر ٩٨
جدول المحتويات ١٠٦

ثانياً: دلالة السنة: ٤٤
ثالثاً: دلالة العقل: ٤٥
المبحث الثاني: دليل الخلق ٤٩
دليل الخلق ينبني على مقدمتين ونتيجة: ٤٩
المقدمة الأولى: أن هذه الموجودات مخلوقة موجودة بعد أن لم تكن موجودة... ٤٩
المقدمة الثانية: كل مخلوق لا بد له من خالق، وكل موجود لا بد له من موجد. ٤٩
دلالة العقل: ٥٠
دليل الحس: ٥٣
أولا: النظر في الآفاق: ٥٤
الثاني: التفكر في الأنفس: ٥٦
المبحث الثالث: دليل العناية: ٦٠
دليل العناية مبني على أصلين: ٦٠
الأصل الأول: ٦٠
المحور الأول: الدقة والإتقان: ٦١
المحور الثاني: التقدير: ٦٣
المحور الثالث: الهداية: ٦٤
الأصل الثاني: ٦٦
أمثلة على ذلك ٦٦
المبحث الرابع: دليل الضرورة والاضطرار ٦٨
معنى الضرورة والاضطرار في اللغة: ٦٨
معنى الضرورة والاضطرار في الاصطلاح: ٦٨

جدول المحتويات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١٣
خطة البحث	١٧
أهمية البحث:	١٨
منهج البحث:	١٩
الدراسات السابقة:	٢٠
المطلب الأول: في تعريف الدلائل في اللغة والشرع	٢٣
أولا: معنى الدليل في اللغة:	٢٣
ثانياً: معنى الدليل في الشرع:	٢٣
المطلب الثاني: تعريف توحيد الربوبية في اللغة والاصطلاح	٢٦
أولا: تعريف التوحيد في اللغة	٢٦
المطلب الثالث: أهمية دلائل ربوبية الله:	٢٨
تمهيد	٢٨
اعتراض وجوابه:	٢٩
تمهيد	٣٥
المبحث الأول: دليل الفطرة.	٣٦
معنى الفطرة في اللغة:	٣٦
المراد بالفطرة في الاصطلاح الشرعي:	٣٧
الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة والعقل:	٣٨
أولا: دلالة الكتاب:	٣٨

٦٠) منهاج السنة النبوية لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الناشر: مؤسسة قرطبة الطبعة الأولى، ١٤٠٦ تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٦١) منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير عقيدة التوحيد للدكتور: إبراهيم بن محمد بن عبد الله البريكان الناشر: دار ابن القيم – دار ابن عفان سنة النشر: ١٤٢٥ – ٢٠٠٤

٦٢) نبذة في العقيدة الإسلامية للشيخ محمد بن صالح العثيمين ط مؤسسة ابن عثيمين الخيرية ـ دار ابن الجوزي.

٦٣) النبوات ـ لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ط/ دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ.

الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ.

٥١) مدارج السالكين للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تعليق الفقي، طبعة: دار الكتب العلمية.

٥٢) المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٦ تحقيق: د.مفيد محمد قميحة.

٥٣) المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري دراسة و تحقيق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية.

٥٤) المطالب العالية من العلم الإلهي فخر الدين الرازي تحقيق أحمد حجازى السقا، الناشر دار الكتاب العربي.

٥٥) المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المتوفى ٣٦٠هـ تحقيق وتخريج، حمدي عبد الحميد السلفي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالعراق.

٥٦) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر الطبعة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٧) مفتاح دار السعادة، للإمام ابن القيم: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، طبعة مؤسسة الأندلس للنشر والتوزيع ـ طليم ـ مصر. ١٤١٤هـ.

٥٨) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى عام ٥٠٢هـ بتحقيق محمد كيلاني ط/ الحلبي ١٣٨١هـ.

٥٩) الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني الناشر: دار المعرفة بيروت، ١٤٠٤ تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٤٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب صديق حسن القنوجي، تحقيق عبد الله الأنصاري طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر.

٤٣) الفطرة حقيقتها ومذاهب الناس فيها لعلي بن عبد الله بن علي القرني طبعة دار المسلم للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٤٤) الفوائد لابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الناشر: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

٤٥) كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الناشر: دار ومكتبة الهلال تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.

٤٦) كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الناشر: دار ومكتبة الهلال تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.

٤٧) كتاب الكليات لأبى البقاء الكفوي معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري.

٤٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

٤٩) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة الأولى.

٥٠) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام لشيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الناشر: دار الوفاء

الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

٣٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٣٤) شرح العقيدة الطحاوية لصدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي تحقيق: أحمد محمد شاكر الطبعة: الأولى الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية.

٣٥) شرح معاني الآثار المؤلف: أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٣٩٩ تحقيق: محمد زهري النجار.

٣٦) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا. ١٤٠٢هـ. الشربتلي.

٣٧) صحيح البخاري تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي المطبعة السلفية.

٣٨) صحيح مسلم تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي طبعة: دار إحياء التراث العربي فيصل الحلبي.

٣٩) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم، تحقيق د/ علي الدخيل الله، ط/ دار العاصمة الرياض ١٤٠٨هـ.

٤٠) طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ

٤١) العقيدة في الله للدكتور عمر بن سليمان الأشقر طبعة مكتبة الفلاح ١٩٧٩م.

٢٤) الدر المنثور لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي الناشر: دار الفكر - بيروت ١٩٩٣.

٢٥) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الناشر: دار الكنوز الأدبية - الرياض، ١٣٩١ تحقيق: محمد رشاد سالم.

٢٦) دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، دار النفائس، بيروت، ط: ١، ١٤١٢هـ

٢٧) الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الناشر: دار المعرفة - بيروت.

٢٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق: على عبد البارى عطية الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤١٥ هـ

٢٩) زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م الطبعة الأولى تحقيق: د. يوسف على طويل.

٣٠) السلسلة الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني الناشر: مكتبة المعارف - الرياض

٣١) سنن الترمذي المسمى الجامع الصحيح لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٣٢) السنن الكبرى للنسائي: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي

العباس. الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، مصر الثانية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

١٦) تفسير ابن كثير لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.

١٧) تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير ابن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: لأولى، ١٤٢٠ هـ

١٨) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي،محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧.

١٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، عبد الرحمن السعدي، ت/ محمد النجار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ١، ١٤١٥هـ.

٢٠) جمهرة اللغة محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر المحقق: رمزي منير بعلبكي الناشر: دار العلم للملايين، سنة النشر: ١٩٨٧.الطبعة الأولى.

٢١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الناشر: دار العاصمة - الرياض الطبعة الأولى، ١٤١٤تحقيق: د.علي حسن ناصر، د.عبد العزيز إبراهيم العسكر،د. حمدان محمد.

٢٢) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد الهاشمي. تحقيق: لجنة من الجامعيين -الناشر: مؤسسة المعارف - بيروت -الطبعة: الثانية

٢٣) الحيوان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الناشر دار الجيل ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م لبنان/ بيروت.

مؤسسة الخانجي ١٣٨٢هـ.

٨) الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية طبعة مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٨٨٦م

٩) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد لمحمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

١٠) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ط دار المعرفة سنة النشر: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

١١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الطبعة: الرابعة الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ.

١٢) بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس تعليق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطابع الحكومة السعودية بمكة المكرمة ١٣٩٢هـ.

١٣) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ، الناشر: دار صعب – بيروت الطبعة الأولى، ١٩٦٨.تحقيق: المحامي فوزي عطوي.

١٤) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

١٥) التدمرية لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو

فهرس المراجع والمصادر

١) أحكام أهل الذمة أحكام أهل الذمة للعلامة محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الناشر: رمادي للنشر، دار ابن حزم، الدمام – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٨ – ١٩٩٧ تحقيق: يوسف أحمد البكري – شاكر توفيق العاروري.

٢) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، سعود العريفي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٣) الاستقامة لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود – الطبعة الأولى، ١٤٠٣ تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٤) الأسماء والصفات للبيهقي الأسماء والصفات للبيهقي أحمد بن الحسين أبو بكر ٤٥٨ هجرية المحقق: عبد الله بن محمد الحاشدي الناشر: مكتبة السوادي جدة. الطبعة: الأولى.

٥) أضواء البيان أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان الطبعة: ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

٦) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ٧٢٨هـ دراسة وتحقيق: ناصر عبد الكريم العقل الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، السابعة، ١٤١٩هـ

٧) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للقاضي أبي بكر الضبي الباقلاني، تحقيق وتعليق محمد زاهد الكوثري الطبعة الثانية،

ومرد ذلك والله تعالى أعلم إلى دلالة العقل ودلالة الحس.

١٠) دليل الحس على قسمين النظر في الآفاق، والتفكر في الأنفس.

١١) دليل العناية مبناه على أصلين: أن جميع المخلوقات موافقة لوجود الإنسان، الثاني: أن هذه الموافقة بالضرورة أوجدت من موجد حكيم عليم.

١٢) دليل الإتقان ورد في كتاب الله في ثلاثة محاور: الدقة والاتقان والهداية للمصالح والمنافع.

١٣) دليل الضرورة يتضمن أمرين: عام وهو ما جبل عليه الإنسان من طلب اللجوء إلى الله والاستعانة به عند حلول المصائب، الثاني: خاص وهو العلم الضروري لازم للإنسان لا ينفك عنه و هو حال أهل الإيمان.

١٤) تفترق الضرورة عن الاضطرار بأن الضرورة حاجة ملحة للإنسان لا تنفك عنه، أما الاضطرار فهو حاجة وقتية تنشأ عن محنة وضائقة.

١٥) ينقسم الناس في حال الضرورة في لجوءهم إلى الله إلى ثلاثة أقسام: منهم من لا يلتجئ أصلا، ومنهم من يلتجئ في حال الضرورة ويكفر في حال الرخاء، وخيرهم من يلتجئ في حال الضرورة ويخلص لله العبودية في كل حال، وهؤلاء هم المؤمنون.

١٦) أن معرفة الله بالله دليل لا يدركه إلا الخواص من المؤمنين الكمل العارفون بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله.

١٧) أجمعت الأمم على وجوب الإقرار بربوبية الله والخضوع لملكه وقهره.

١٨) دليل التمانع دليل عقلي شرعي دل على وجوب إفراد الله بالتوحيد.

الخاتمة

وبعد حمد الله والثناء عليه بإتمام هذا البحث يطيب لي أن ألخص أهم النتائج التي توصلت إليها:

١) أهمية العناية بدلائل الربوبية حيث اعتنى الشارع بذكرها وألزمنا بالتفكر فيها.

٢) أن دلائل الربوبية على نوعين ظاهر لكل أحد وقسم لا يطلع عليه إلا من هداه الله له.

٣) تبين من خلال البحث أن أهل العلم أولوا هذا الجانب عناية تنبع من عناية الله لذكره في كتاب وذكر رسوله ﷺ له في سنته.

٤) معرفة الله نوعان عامة وهي: الإقرار بوجوده وربوبيته، وخاصة لأهل الإيمان بشهود آلائه وكمال محبته وإجلاله.

٥) أن سياق دلائل الربوبية في كتاب الله ليس مقصودا به إثبات ربوبيته جل شأنه، وإنما الاستدلال بذلك على تفرده بالعبادة والتأله.

٦) حاجة العباد إلى هذا النوع من الموضوعات ملحة للوصول إلى كمال العبودية.

٧) دليل الفطرة من أظهر الأدلة التي لا يقدر أحد على فعله.

٨) دليل الخلق من أظهر الأدلة وأبينها، وهو مبني على أصلين؛ أحدهما: أن كل المخلوقات وجدت بعد أن لم تكن، وثانيها: أن كل موجود لابد له من موجد.

٩) أكثر الله تعالى من ذكر دليل الخلق بأساليب متنوعة وطرق مختلفة

أنها لا تخلو من مأخذ، وقد نقدها كثير من أهل السنة لكونها لا تخلو من خلط الحق بالباطل[١] إلا أن ما في القرآن من الدلائل على وجود الله ووجوب عبادته مما تقدم آنفاً غنية عن غيره.

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: درء التعارض ٣/ ٧٢ وما بعدها. ومما ينبغي التنبيه عليه أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما يذكر مثل هذه الأدلة لينقدها، لا ليقررها ويستدل بها.

فتبين بهذا أنه لا يمكن أن يجتمع فاعلان تامي القدرة والإرادة في مفعول واحد؛ لأنه يستلزم وجود النقيضين، فعند اختلافهما مثلا في أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته، فإما أن يحصل مرادهما؛ أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين المتناقضين، والثاني أيضاً ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، كما أنه أيضاً يستلزم عجز كل منهما والعاجز لا يكون إلها، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجز لا يصلح للإلهية، وإن كانت الآية سيقت للدلالة على عجز المعبودات من دون الله جل شأنه وتقرير وجوب عبادته وحده لكن يستدل بها على ذكر[١].

فإذا كان الاستقلال بالفعل والغنى عن الغير من خصائص رب العالمين، كان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين، فليس في المخلوقات ما هو مستقل بشيء من المفعولات، وليس فيها ما هو وحده علة تامة، وليس فيها ما هو مستغنياً عن الشريك في شيء من المفعولات، بل لا يكون في العالم شيء موجود عن بعض الأسباب إلا ويشاركه سبب آخر له)[٢].

وهذا الدليل من أدلة المتكلمين التي يستدلون بها على وجود الرب جل وعلا، وهو دليل صحيح عقلاً.[٣]

وهناك أدلة استدل بها الفلاسفة والمتكلمون على إثبات وجود الله ﷻ إلا

---

(١) انظر: الفتاوى ٢٠/ ١٧٤-١٨٠. وانظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٨٧.

(٢) الفتاوى ٢٠/ ١٨١، وانظر: منهاج السنة النبوية ٢/ ١٨٢، ٣/ ٣٠٤ - ٣٣٤.

(٣) انظر: درء التعارض ٩/ ٣٥٤.

الخلق، وهذا أيضاً ممتنع في حق الله؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض لما سيقع من الشريكين من التنافس والاقتتال على الملك. قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر][(١)].

وقد ورد معنى هذا الدليل في كتاب الله قال – تعالى –: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه – سبحانه – إله، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره، وتفرده بالإلهية دونه فعل. وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه، وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضاً بممالكهم.

وإذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر، والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد، وملك واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه، ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون»[(٢)].

---

(١) انظر: المطالب العالية للفخر الرازي ٢/ ١٣٥. منهاج السنة ٣/ ٣٠٤ – ٣٠٥.

(٢) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٣ – ٤٦٤، وانظر: شرح الطحاوية ١/ ٣٨ – ٣٩، درء التعارض٩/ ٣٥٥ – ٣٥٩.

المبحث الثامن: دليل التمانع

دليل التمانع من أدلة المتكلمين وعلى رأسهم المعتزلة استدلوا به على إثبات الخالق جل وعلا، وتبعهم في ذلك الأشاعرة واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهذا الاستدلال غير مسلّم لهم جملة وتفصيلا، وذلك لأنه مبني عندهم على أن غاية ما جاء به الرسل هو توحيد الربوبية، ولذا أنزلوا الآية عليه، والصحيح خلاف ذلك، لأن العرب الذين بعث لهم الرسول ﷺ كانوا مقرين بالربوبية مؤمنين بها وكذا سائر الأمم التي بعثت لهم الأنبياء، ولذا كان كلهم مجمعين على الدعوة إلى توحيد العبادة لا الربوبية، وهذا بيِّن ظاهر لكل من سبر سيرهم وقرأ القرآن[1].

ودليل التمانع مبني على أنه يمتنع شرعاً وعقلاً وجود فاعلين تامي القدرة والإرادة في مفعول واحد هما عليه تاما القدرة والإرادة؛ لأن من كان تام القدرة والإرادة والاستقلال بالفعل وجب وجود المفعول له وحده، وإذا كان الآخر كذلك وجب وجود المفعول له وحده، وإذ قدر اثنان مريدان لأمر من الأمور فلابد من أمرين:

إما أن ينفرد كل واحد منهما بخلقه وإيجاده، هذا ممتنع عقلاً؛ لما يعلم يقيناً من ترابط هذا الكون وانتظام أمره مما يدل على أن له رباً واحداً وموجداً واحداً لا شريك له ولا مثيل ولا نظير.

وإما أن يعلو بعضهم على بعض فلا يرضى كل منهما بوجود الشريك في

---

(١) انظر: شرح الطحاوية ص٥٣.

عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١٧ - ٢٣].

٤ـ ومن معجزات عيسى عليه السلام أنه يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثم ينفخ فيها فتكون طيورا بإذن الله، ويمسح الأكمه -وهو الأعمى- والأبرص فيبرآن بإذن الله، وينادي الموتى في قبورهم فيجيبون بإذن الله. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

٥ـ وأما معجزات نبينا عيه الصلاة والسلام فأكثر من أن تذكر، ومن أعظمها القرآن العظيم الذي هو أعظم معجزات الرسل على الإطلاق. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال سبحانه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر عندما سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر شقين فرآه أهل مكة ورآه غيرهم. قال ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ١ - ٢] ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام الإسراء والمعراج. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] وهذا المعجزات كما تقدم تدل على ربوبية الله جل وعلا من الأوجه السابق ذكرها، كما أنها تدل على صدق نبوة الأنبياء. والله تعالى أعلم.

٢) جعل الله النار التي ألقي فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام بردا وسلاما عليه. قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[الأنبياء: ٦٨ -٦٩].

٣) أما موسى عليه السلام فقد أوتي تسع آيات معجزات قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾[الإسراء: ١٠١].

«قال بعض أهل العلم: هذه الآيات التسع، هي: العصا، واليد، والسنون. والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات.

وقد بين جل وعلا هذه الآيات في مواضع أخر. كقوله: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الشعراء]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[الأعراف:]١٣٠، وقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما ذكرنا. وجعل بعضهم الجبل بدل «السنين» وعليه فقد بين ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾[الأعراف: ١٧١] ونحوها من الآيات»[(١)].

ومن تلك الآيات تحول العصا إلى حية عظيمة في حال ألقاها إلى الأرض، وكذا يده إذا أدخلها في درع قميصه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر من غير سوء، قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٨/ ٣٥٤)

فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٣٣] فقد أقام عليه الحجة أولًا بالآيات التي يستلزم العلم بها العلم بالخالق جل وعلا، فلما عاند وكابر رده إلى دلالة المعجزة التي هي أبلغ في الدلالة على المقصود ليثبت بها كلا الأمرين: الربوبية والرسالة.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣ - ١٤] فبين أن المعجزة تدل على الرسالة والوحدانية، فإذا أثبتت المعجزة أحدها فقد أثبتت الآخر»(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعجزات قد يُعلم بها ثبوت الصانع وصدق الرسول معاً»(٢).

رابعا: أمثلة على معجزات الأنبياء:

معجزات الأنبياء كثيرة منها:

١) معجزة ناقة نبي الله صالح عليه السلام حيث طلب منه قومه ناقة من صخرة صماء وبصفات معينة، فدعا ربه فانفطرت الصخرة عن ناقة عظيمة على الصفة التي طلبوها فكانت آية من آيات الله الدالة على ربوبيته وعظمة وصدق رسله، قال تعالى حاكيا قول قومه: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٤ - ١٥٦].

---

(١) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (ص: ١٢٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٤٢.

صدق الرسل، فإنها تدل أيضًا على ربوبية المرسل وألوهيته، وذلك لما يأتي:

أولًا: أن المعجزة تدل بنفسها على ثبوت الخالق جل وعلا كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يُسَبَّح الرب عندها ويُمَّجَد ويُعَّظَم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل بها في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها.

ثانيًا: أنه إذا تقررت بها النبوة والرسالة فقد تقررت بها الربوبية كذلك، إذ لا يكون هناك نبي ولا رسول إلا وهناك مرسل، فالإقرار بالرسالة يتضمن الإقرار بالربوبية بلا نزاع.

ثالثًا: إن النبوة إذا ثبتت بالمعجزة، فقد صارت أصلًا في وجوب قبول جميع ما دعا إليه النبي من حقائق الربوبية والألوهية وغيرها.

وقد جاء القرآن بهذه الطريقة في قصة فرعون، فإنه كان منكرًا للرب جلا وعلا، فحاجه موسى في ذلك، ثم عرض عليه الحجة البينة التي جعلها دليلًا على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهًا غير فرعون، فاستدل بالمعجزة على كلا الأمرين: ربوبية الله جل وعلا، وكونه مرسلًا من عنده تعالى.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ

ثالثا: كيف كانت معجزات الأنبياء دليلا على تفرد الله جل جلاله بالربوبية:

معجزات الأنبياء من أظهر الدلائل على صدقهم وعلى نبوتهم وأنهم رسل من عند الله، كما أنها من أظهر الدلائل على ربوبية الله جل جلاله وتفرده بالربوبية وذلك أن هذا الكون يسير وفق سنن إلهية تتكرر للإنسان حتى اعتادها وأصبحت من الأمور التي لا يجادل فيها عقل كطلوع الشمس من المشرق وتعاقب الليل والنهار، وتكون الماء من السحاب ونزوله على الأرض ونبات النبات بسببه، وبالجملة كون كل أمر له سبب كوني يعقله الإنسان، فإذا وردت المعجزة على غير العادة السالمة من المعارض دلت على أن ذلك الأمر إنما حدث من محدث قوي فعال لما يريد، وبالجملة يمكن أن نقول بأن هذا الدليل مبني على مقدمتين ونتيجة:

المقدمة الأولى: حدوث هذه الآيات المعجزة للبشر على خلاف معهودهم وما يدركونه من أسباب.

المقدمة الثانية: أن حدوثها على تلك الصفة يدل على أن لها مسببا موجدا أوجدها على غير تلك الهيئة المعهودة.

النتيجة: لا بد وأن يكون الله جل جلاله هو الذي أوجد هذه الآيات على جهة تخالف ما سنّه كونا.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معجزات الأنبياء كثيرة:، وهي إما حسية تشاهد بالبصر أو تسمع كخروج الناقة من الصخرة، وانقلاب العصا حية، وكلام الجمادات، ونحو ذلك، وإما معنوية تشاهد بالبصيرة كمعجزة القرآن، وهذه إحدى الطرق القرآنية في إثبات الربوبية، ذلك أن المعجزة كما تدل على

ثالثها: العلامة؛ تقول العرب: خربت دار فلان وما بقي فيها آية، أي: علامة، فكأن كل آية في القرآن علامة ودلالة على نبوة محمد ﷺ [١].

ووصفت الآيات بأنها بينات، وهذا بليغ لظهورها وجلائها مما لا يدع لأحد بعد معاينتها أدنى شك في صدق ما جاءت به الأنبياء، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وتسمية المعجزات بالآيات البينات كثير في القرآن الكريم.

ومما جاء في كتاب الله في وصف المعجزات؛ بأنها بصائر كما في شأن إعجاز القرآن الكريم وتحدّى ربنا جل وعلا أفصح العرب بأن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] فلشدة حصول البيان بها نزل العلم بها منزلة المبصر بالعين، يقول البقاعي: «أي بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب، أو حجج بينة وبراهين نيرة تغني عن غيرها فالكلام خارج مخرج التشبيه البليغ»[٢].

وبهذا وصفت معجزات موسى عليه السلام، قال تعالى ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] «أي بينات ثابتاً أمرها علياً قدرها، يبصر بها صدقي»[٣].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٢) انظر: وح المعاني في تفسير القرآن العظيم للألوسي ٥/ ١٤٠.

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (٤/ ٤٣٣).

و في القاموس: ومعجزة النبي ﷺ ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة.

المعجزة اصطلاحاً: اختلفت عبارات أهل العلم في تعريفهم للمعجزة على أقوال[١] يمكن جمعها بأن نقول المعجزة هي: أمر خارق للعادة يجري على أيديَ الأنبياء للدلالة على صدقهم مع سلامة المعارضة.

إلا أنه مما ينبغي التنبيه عليه بأن إطلاق لفظ (المعجزة) على ما يأتي به النبي لإظهار صدقه في دعواه للنبوة لم يرد في الكتاب ولا في السنة ولا على ألسنة الأئمة المتقدمين وإنما الذي ورد لفظ الآية، والبينة، والبرهان[٢].

ثانيا: وصف المعجزة في النصوص الشرعية:

وصفت المعجزة بأنها آيات بينات، والآية هي: العلامة، وجمع الآية آى وآياى وتأتي على ثلاثة معان:

أحدها: جماعة الحروف؛ قال أبو عمرو الشيباني: تقول العرب: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم.

ثانيها: الآية: العجب؛ تقول العرب: فلان آية في العلم وفي الجمال، قال الشاعر:

آية في الجمال ليس له في الـ حسن شبه وما له من نظير

فكأن كل آية عجب في نظمها والمعاني المودعة فيها

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص٢٤٩، و الإتقان للسيوطي ٤/ ٣، و شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ١/ ١٥٢، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. شرح جوهرة التوحيد للقاني ص١٣٣.

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٢٧٠)

المبحث السابع: دلالة معجزات الأنبياء والكتب المنزلة

من أوضح دلائل الربوبية دلالة المعجزة التي جاءت بها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومما يلحق بدليل المعجزات دلالة الكتب المنزلة على أنبيائه ورسله حيث تضمنت كلام الله جل وعلا الذي هو هدى ونور للقلوب والعقول والأبدان من اتبعها رشد ومن أعرض عنها هلك.

وما زال بين أيدينا أعظم كتاب أنزل على رسول، القرآن العظيم الذي حوى كل خير وحذّر من كل شر، فيه شفاء لما في الصدور والأبدان، من اتبعه اهتدى ومن أعرض عنه ضل وغوى، تحدى الله به أفصح العرب بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، والكتب المنزلة هي جزء من المعجزات التي أوتيها رسل الله ولذا كان الكلام على المعجزة متضمن الكلام على دلالة الكتب المنزلة. والكلام على هذا الدليل من عدة أوجه:

أولا: تعريف المعجزة:

المعجزة لغةً: أصل المعجزة مأخوذ من (العَجْز) «والعَجْزُ الضعف وعدم القدرة، تقول: عَجَزتُ عن كذا، أعْجِزُ بالكسر عَجْزَاً ومَعْجِزَةً ومَعْجزاً بالفتح» قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١] قال الزجاج معناه ظانّين أنهم يُعْجِزُوننا وفي التنزيل العزيز ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] والمعنى ما أَنتم بمُعْجِزِينَ في الأَرض ولا من في السماء بمُعْجِزٍ، قال الأَخفش: معناه ما أَنتم بمُعْجِزِين في الأَرض ولا في السماء، أَي: لا تُعْجِزُوننا هَرَباً في الأَرض ولا في السماء والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء[1].

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – دار العلم للملايين (٣/ ٨٨٣). وانظر: لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٨١٧).

والنحل، والآراء والديانات، فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات، بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور والظلمة، وأن النور خلق الخير والظلمة خلقة الشر[١].

فتبين من هذا أن ليس في العالم من ينازع في ربوبية الله جل وعز؛ وكونه خلق الخلق وأوجدهم فضلا عن وجوده؛ لكن غاية ما يقال: إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقاً لغير الله كالقدرية وغيرهم؛ لكنهم يقرون بأن الله خالق العباد وأفعالهم وإن قالوا إنهم خلقوا أفعالهم.

وكذلك أهل الفلسفة والمنجمون الذين يجعلون بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور، هم مع الإقرار بالخالق يجعلون هذه الفاعلات من الكواكب وغيرها مخلوقة، ولا يقولون إنها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق[٢].

---

(١) وبرغم أن الثنوية يقولون بوجود خالقين إلا أنهم يعتقدون أن إله الخير أقوى وأعظم من إله الشر التي هي الظلمة، انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) انظر: الفتاوى ٣/ ٩٧-٩٨. واقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ١ / ٤٥٩

المبحث السادس: إجماع الأمم

من الأدلة الدالة على وجود الخالق جل وعلا ووجوب عبادته وتوحيده إجماع الأمم قاطبة سابقها ولاحقها على وجود الله سبحانه وتعالى سواء قولاً أو فعلاً أو عملاً، ولذا لو طفت الأرض لوجدت أن كلمة الله وكلمة الرب لا تخلو منها بقعة من الأرض.. ولذا لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، اللهم إلا شذاذ وحثالات لا يعتد لمثلهم بخلاف، ولا يؤبه لمثلهم بقول.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معلوم أن أحداً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء، والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم[١] شاركوا الله في خلق السموات والأرض. بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال؛ بل ولا أثبت أحد من بنى آدم إلهاً مساوياً لله في جميع صفاته. بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس له شريك مثله، بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له، سواء كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً، أو صنماً كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.»[٢]

بل مع ذلك كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء حتى أنهم كانوا يقرون بالقدر أيضاً.

وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل

---

(١) رغم اعتقاد النصارى هذا فإنهم يزعمون أنه بعد وجود المسيح أصبح مشاركاً لله في تدبير الخلق، وفي الأمر والنهي، وأنه سيحاسب البشر، ولم يذكروا أنه شارك الله في شيء من ذلك قبل وجوده، مع تسميتهم له رب وإطلاق صفات الله عليه.

(٢) الفتاوى ٣/ ٩٦. وانظر: الفتاوى أيضاً ١٤/ ٣٨٠، ١/ ٩١-٩٢، ٣/ ١٠٥.

ومما يستدل به أيضاً قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح] حيث يستدل بها على أن الله يفعل برسوله كل أمر محمود يؤيده وينصره به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر أنواع المعرفة بالله: «وأعلم هؤلاء معرفة من عرف من كلامه، فإنه يعرف ربا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال، منزّه عن المثال، بريء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن وكل وصف كمال، فعّال لما يريد، فوق كل شيء ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء، آمر ناه متكلم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين. فالقرآن أنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل اليه، وبحال السالكين بعد الوصول اليه»[1] والله تعالى أعلم.

(١) الفوائد لابن القيم - ١ / ١٩٩.

أصل ومسبب كل سبب وعلة: هو الدليل والبرهان والأول والأصل الذي يستدل به العبد، ويفزع إليه، ويرد جميع الأواخر إليه في العلم: كان ذلك سبيل الهدى وطريقه، وكان المتوكل عليه في علمه وعمله القائل إنه لاحول ولا قوة إلا بالله مؤيداً منصوراً، فجماع الأمر: أن الله هو الهادي وهو النصير ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان].

وكل علم فلا بد له من هداية، وكل عمل فلا بد له من قوة، والواجب أن يكون الرب أصل كل هداية وعلم، وأصل كل نصرة وقوة، فلا يهتدي العبد إلا به ولا يستنصر إلا إياه.

والعبد لما كان مخلوقاً مربوباً مفطوراً مصنوعاً عاد في علمه وعمله إلى خالقه وفاطره، وربه وصانعه فصار ذلك ترتيباً مطابقاً للحق، وتأليفاً موافقاً للحقيقة، إذ بناء الفرع على الأصل، وتقديم الأصل على الفرع: هو الحق، فهذه الطريقة الصحيحة في معرفة العبد لربه، الموافقة لفطرة الله وخلقه ولكتابه وسنة رسوله»[(١)] خلافاً للطريقة الفلسفية الكلامية، فإنهم ابتدأوا بنفوسهم فجعلوها هي الأصل الذي يفرعون عليه، والأساس الذي يبنون عليه، وجعلوا العلوم الحسية والبديهية ونحوها هي الأصل الذي لا يحصل العلم إلا به، ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور الحسابية والأخلاق وغيرها من الأمور القريبة منهم، ثم بنوا على هذه الأصول التي وضعوها سائر العلوم[(٢)].

---

(١) الفتاوى ٢/ ١٩-٢٠ بتصرف.

(٢) انظر: الفتاوى ٢/ ٢٠-٢١.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير، وأما الاستدلال بالصانع فله شأنه، وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

ولـيس يصـح في الأذهـان شيء إذا احتـاج النهـار إلى دليـل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود الليل والنهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما» [(١)].

ومن ذلك استدلال عامر بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بذلك على هدايته بقوله:

والله لـولا الله مـا اهتـدينا ولا صـمنا ولا صـلينا
فـأنزلن سـكينة عليـنا وثبـت الأقـدام إن لاقينـا
والمشـركون قـد بغـوا علينـا إذا أرادوا فتنـة أبينـا[(٢)]

وتمثل بها رسول الله ﷺ يوم الخندق[(٣)].

«فإذا كان الحق الحي القيوم الذي هو رب كل شيء ومليكه ومؤصل كل

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧١.
(٢) رواه البخارى (ح ٦٣٣١). ومسلم (ح ١٨٠٧).
(٣) رواه البخاري (٦٦٢٠).

يعذبني- عليه دليلاً».

وقيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بم عرفت ربك؟ قال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس، خارجاً عن المنهاج، ظاعناً في الاعوجاج، عرفته بما عَرَّف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه[١]، فأخبر أن معرفة الله حصلت بمعرفة الله وهو نور الإيمان [٢].

وسئل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ «بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على عرشه بائن من خلقه...»[٣].

والاستدلال بالله تعالى على فعله وخلقه وإيجاده معلوم سمعاً وعقلاً، وبذلك يستدل على وجود الله، وأنه حيٌّ قيوم، لم يزل موصوفاً بأنه يتكلم بما شاء، وأنه فعال لما يشاء، وهذا قد قال العلماء الأكابر من أهل السنة والحديث، ونقلوه عن السلف والأئمة، وهو قول طوائف كثيرة من أهل الكلام[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «.. دلالة الخالق على المخلوق، والفعّال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العُلْوِيَّةِ، والفطر الصحيحة: أظهر من العكس.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان كل منهما حق، والقرآن مشتمل عليهما.

---

(١) الفتاوى ٢/ ٣.

(٢) الفتاوى ٢/ ١٨

(٣) درء التعارض ٢/ ٥٧.

(٤) درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٣-٥.

المبحث الخامس: معرفة الله بالله[١]:

تقدم أن العباد قد فطروا على معرفة الله جل ذكره، وأن معرفته تدعوهم إلى التوجه إليه ومن ثم الإذعان والتوكل عليه، وتبين أن هذا الأمر راسخ في نفوس البشر منذ الولادة، ولذا فإن العبد إذا استمرت فطرته سليمة فإنه يعرف ربه من جراء ما جبل وفطر عليه، كما تقدم أنه يستدل بمخلوقاته سبحانه على وجوده، فالاستدلال به وبأفعاله على وجوده أولى وأحرى.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن ما سوى الله من الموجودات والأعيان والصفات يستدل بها عليه، سواء كانت حية أو لم تكن، بل ويستدل بالمعدوم؛ فلأن يستدل بالحي القيوم أولى وأحرى، وقد ورد في الدعاء المأثور عن الإمام أحمد الذي علّمه لبعض أصحابه: «يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين»[٢].

وهذا يقتضى أن تسميته دليلاً باعتبار أنه دال لعباده، لا بمجرد أنه يستدل به، كما قد يستدل بما لا يقصد الدلالة والهداية من الأعيان والأقوال والأفعال.

ولهذا يذكر عن بعضهم قوله: «عرفت الأشياء بربي، ولم أعرف ربي بالأشياء»، وقال بعضهم: «هو الدليل لي على كل شيء، وإن كان كل شيء -لئلا

---

(١) انظر: كتاب الفوائد لابن القيم ٣١٨ وما بعدها.

(٢) مجموع الفتاوى ٢/ ١٧، ١٨. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أنكر طائفة من أهل الكلام: كالقاضي أبي بكر وأبي الوفاء بن عقيل أن يكون من أسمائه الدليل؛ لأنهم ظنوا أن الدليل هو الدلالة التي يستدل بها، والصواب ما عليه الجمهور؛ لأن الدليل في الأصل هو المعرف للمدلول، ولو كان الدليل ما يستدل به، فالعبد يستدل به أيضاً فهو دليل من الوجهين جميعاً» الفتاوى ٢٢/ ٤٨٣-٤٨٤.

٢ـ قصة ابن حصين أخرج الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ لأبي: «يا حصين كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبي: سبعة، ستا في الأرض وواحدا في السماء. قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء، قال يا حصين: أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك، قال: فلما أسلم حصين قال يا رسول الله: علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: قل اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي»[(١)].

٢ـ رجل من كنانة جاء بإبل له مريضة إلى صنم يقال له سعد ليشفيها ويتبرك به، فلما قرب منه نفرت وتفرق شملها، فأنشد يقول:

أتينـــا ســـعداً لنجمـــع شملـــنا
فشـــتّتنا ســـعد فـــلا نحـــن مـــن ســـعد
وهـــل ســـعد إلا صـــخرة بتنومـــة
مـــن الأرض لا يُـــدعى بِغَـــيٍّ ولا رشـــد[(٢)]

(١) سنن الترمذي (ح ٣٤٨٣) وقال حديث غريب وضعفه الألباني وأخرجه الترمذي في الدعوات (ح ١٤٨٧) وصححه، وأخرجه الطبراني في الدعاء (ح ١٣٩٣).
(٢) الملل والنحل ٢ / ٢٣٦.

تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾[الإسراء] وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل][(١)].

أي إذا لجأتم إليه في البحر أنجاكم، ثم بعد خروجكم تكفرون به وتشركون، أَوَ تظنون أن بخروجكم من البحر نلتم على الأمن من عقابه وعذابه وانتقامه، فقد يخسف بكم جانب البر، أو قد يرسل عليكم مطراً فيه حجارة [قاله مجاهد] كما قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾[القمر: ٣٤] ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ أي ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها[(٢)].

من حوادث الرجوع إلى الله وقت الضرورة:

١ـ قصة عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذهب فاراً من رسول ﷺ حين فتح مكة، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه فلأجدنه رؤوفا رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه[(٣)(٤)].

---

(١) انظر: ابن كثير ٦/ ٢١٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٩٤.

(٣) انظر: ابن كثير ٥/ ٩٣.

(٤) أخرجه النسائي (ح ٤٠٦٧) وصححه الألباني، والطحاوي في شرح معاني الآثارأيضاً (ح ٥٠٦٤).

فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح عاصف شديدة الهبوب وجاءهم الموج من كل مكان فعرفوا أنه الهلاك فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لاينجيهم من هذه الشدة إلا رب العالمين، وحينئذ دعوا الله مخلصين له الدين، ووعدوا الله من عند أنفسهم بالإخلاص له بالعبادة كما أخلصوا له بالدعاء في هذا الموقف العصيب إن هو أنجاهم(١).

٢) ذكر الله في كتابه على صفة الاستفهام التقريري قوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]. أي: هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله.

ومن يكشف السوء أي البرء والشر والنقمة إلا الله وحده.؟

ومن يجعلكم خلفاء الأرض بالتمكين والرزق والتناسل والتكاثر ونحو ذلك.

﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي قليل تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض، شامل فلذلك لا ارعويتم ولا اهتديتم(٢).

٣) الله جل شأنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل ويدل على ذلك مايلي:

قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا

(١) تفسير ابن سعدي ٣/ ٣٤١. وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٥.

(٢) تفسير ابن سعدي ٥/ ٥٩٢.

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢] لكن حال المؤمنين يختلف عن أولئك، فقد يكون من تمام النعمة والمنة عليهم ما ينزل بهم من مصائب ومحن تجعلهم يلتجؤون إلى الله سبحانه، فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه، والبراءة من الشرك وأهله ما هو أعظم من زوال العسر وحصول اليسر، مما لا يستحضر تفصيله بال، أو يعبر عن كنهه مقال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب(١).

أدلة ما ذكر آنفاً:

سأذكر هنا بعض الآيات الدالة على هذا النوع من الأدلة وأقف معها بعض الوقفات:

١) قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس].

قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] أي موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقة. ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي اطمأنوا بها.

---

(١) انظر: الفتاوى ١٠/ ٣٣٢-٣٣٣، ١٤/ ٣٧٠-٣٧٣، ٢٢/ ٣٨٦-٣٨٧. وانظر: أيضاً درء التعارض ٣/ ١٣٥-١٣٦.

جميعه بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾.

فمن صرف شيئا من ذلك لغير الله تَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْإِنْكَارُ السَّمَاوِيُّ الذي هو في ضمن قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فلا فرق البتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية»[(١)].

وقد تقدم أن الاضطرار حاجة وقتية تنشأ من محنة أو ضائقة، ولذا فكثير ما تنكشف الحجب عن الفطرة فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربه وآب إليه بسبب بلاء أصابه، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضر نزل به. وكم من فاجر أناب إلى ربه لخطب ألمّ به.

أقسام الناس فيه:

والناس فيه على ثلاثة أقسام:

قسم لا يلتجئون إليه ولا يدعونه، وهؤلاء هم شر الأقسام.

وقسم يلتجئون إليه ويدعونه؛ لكنهم عند كشف البلاء يشركون به، ومن هؤلاء: المشركون.

وقسم يلتجئون إليه ويدعونه ويخلصون له الدعاء والتوحيد، وهؤلاء هم أهل الإيمان وهم خير الأقسام[(٢)].

قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا

(١) أضواء البيان ٧/ ٤٠٥.

(٢) انظر: الفتاوى ١٤/ ٣٧٠-٣٧٢.

ومثلها تلك الحكاية المذكورة في قول أبي جعفر الهمداني لأبي المعالي الجويني[١] لما أخذ يقول على المنبر: كان الله ولا عرش، فقال يا أستاذ: دعنا من ذكر العرش وأخبرنا عن الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط «يا الله» إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا تلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني حيرني الهمداني ونزل[٢].

دليل الاضطرار:

الأصل في هذا الدليل قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشْفُ السوء وجَعْلُ الناس خلفاء في الأرض من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعدها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فتأمل قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ مع قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجؤوا ودعوا وَكَشْفَ السوء عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية، بينه وبين خلق السماوات والأرض وَإِنْزَالِ الْمَاءِ وَإِنْبَاتِ النَّبَاتِ، وَنَصْبِ الْجِبَالِ وَإِجْرَاءِ الْأَنْهَارِ، لِأَنَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع

---

(١) هو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني النيسابوري ولد سنة ٤١٩ هـ، وتوفي ٤٧٨ هـ انظر: السير ١٨/ ٤٦٨-٤٧٧.

(٢) انظر: الفتاوى ٤/ ٤٣-٤٤. وانظر: «الاستقامة» ١/ ١٦٧.

لم يحصل له ذلك بقي قلبه فارغاً معذباً بفراق غذائه الروحي الذي هو أحوج إليه من الطعام والشراب[١].

الأمر الثاني: أن هذا هو العلم الضروري الذي يلزم المخلوق لزوماً لا يمكنه الانفكاك عنه، وهذا هو حال أهل الإيمان والمعرفة بالله ﷻ، من أئمة المسلمين وسلف الأمة وحملة الحجة، فإنهم يخبرون بما عندهم من اليقين والطمأنينة والعلم الضروري بالله جل وعز، كما في الحكاية المحفوظة عن نجم الدين الكُبْرَى[٢] لما دخل عليه متكلمان، أحدهما أبو عبدالله الرازي والآخر من متكلمي المعتزلة وسألاه عن علم اليقين الذي يجده العبد في قلبه من معرفة الله جل ذكره وضرورة التوجه إليه، فقالا له: بلغنا أنك تعلم علم اليقين فقال نعم، أنا أعلم علم اليقين، فقالا: كيف يمكن ذلك ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر، فلم يقدر أحدنا أن يقيم على الآخر دليلاً؟ فقال ما أدري ما تقولان، ولكن أنا أعلم علم اليقين، فقال: صف لنا علم اليقين، فقال: علم اليقين عندنا واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها، فجعلا يقولان: واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها؟! ويستحسنان هذا الجواب.[٣].

---

(١) انظر: الفتاوى ١/ ٥٥، ٨/ ١٦٤ـ١٦٨، ٣٧٩، ومنهاج السنة ٥/ ٤١٤.

(٢) هو أبو الجناب نجم الدين أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي المحدث الصوفي، استشهد في قتال التتار سنة ٦١٨هـ، وقيل إن تسميته بالكبرى: أن أنه فاق أقرانه بفهم المشكلات وحل المعضلات، فلقبوه بالطامة الكبرى ثم حذفت الطامة، وبقيت الكبرى. انظر: السير ٢٢/ ١١١، وشذرات الذهب ٥/ ٧٩-٨٠.

(٣) انظر: هذه الحكاية في: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١١٢.

افتعال منها. يقال: اضطرّه إلى كذا، والفاعل والمفعول: مضطر.

والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى الله. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو المجهود. وعن السدّي: الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: المذنب إذا استغفر.

فإن قلت: قد عمّ المضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]»[1].

فالمضطر هو ذو الضرورة أي الحالة المحوجة إلى الأشياء العسرة الحصول.

والاضطرار: افتعال من الضرورة لا من الضر. وتقديره: أنه نالته الضرورة فطاوعها. وليس له فعل مجرد وإنما يقال: اضطره كذا إلى كذا.

وبناء على ما تقدّم فإن الضرورة: هي حاجة ملحة لابد للإنسان منها.

أما الاضطرار: فهو حاجة وقتية تنشأ من محنة أو ضائقة.

دليل الضرورة على معرفة الله

دليل الضرورة يشمل أمرين مهمين:

أحدهما: ما قد جبل عليه الإنسان من معرفة الله وحاجته إليه من طلب اللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه، والتوجه بالدعاء إليه، وهذه أمور ضرورية يجدها العبد في نفسه وقلبه ولا يجد السبيل إلى دفعها، بل كل الخلق يعلمون وجوده وقدرته وتصرفه بهذا الكون وتدبيره له، إلا من شذ ولا عبرة بالشاذ، بل إن العبد يجد في قرارة نفسه الرغبة الملحة إلى التعرف على ربه وملء قلبه بالأنس به والشوق إليه والتلذذ بذكره وعبادته والتعرف على صفاته، فإذا

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨١. وانظر: التحرير والتنوير ١٠ / ٣٨٢.

المبحث الرابع: دليل الضرورة والاضطرار

معنى الضرورة والاضطرار في اللغة:

قال الخليل: «الضرورة اسم لمصدر الاضطرار، تقول حملتني الضرورة على كذا، وقد اضطر فلان إلى كذا وكذا»(١). والاضطرار الاحتياج إلى الشيء، وقد اضطره إليه أمر، والاسم الضرة، والضرورة كالضرة(٢). والضرورة اسم من الاضطرار(٣).

معنى الضرورة والاضطرار في الاصطلاح:

قال الباقلاني في تعريفه: «فالضروري ما لزم أنفس الخلق، لزوماً لا يمكنهم دفعه، والشك في معلومة»(٤).

وحَدّه بعض المعتزلة بأنه: «العلم الذي يحصل فينا، لا من قبلنا، ولا يمكننا نفيه عن النفس بوجه من الوجوه».

ويقول شيخ الإسلام: «حد العلم الضروري، وهو الذي يلزم نفس العبد لزوماً لا يمكنه معه دفعه عن نفسه»(٥).

الفرق بين الضرورة والاضطرار:

قال في الكشاف: «الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجإ، والاضطرار:

---

(١) العين ٧/ ٧، وانظر: لسان العرب ٤/ ٤٨٤.

(٢) انظر: لسان العرب ٤/ ٤٨٣، الصحاح ٢/ ٢٠، معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٦٠.

(٣) انظر: المصباح المنير ٢/ ٣٦٠.

(٤) الإنصاف ص١٤.

(٥) درء التعارض ٦/ ١٠٦، وانظر: الدرء ٧/ ٤٣٠ وبيان تلبيس الجهمية ١/ ٢٦٦.

وألوانهم وتنوع أعمالهم، ثم نظرت إلى الأرض فرأيتها قد هيئت لسكنى الناس وسائر الحيوانات البرية، والماء وكونه موافقاً لسكنى الحيوانات المائية، والهواء وحاجة الجميع له، والماء وعدم استغناء مخلوق عنه، وأنه لو اختل شيء من هذا الخلقة والبنية لاختل وجود هذه المخلوقات، من أدرك ذلك بعين البصر والبصيرة علم على القطع أنه لا يمكن أن تكون هذه الدقة والإحكام والإتقان قد وجدت من غير موجد. لماذا؟.

١) لأننا إذا رأينا مسكناً قد هُيِّئ على ملائمة جميع ما يحتاجه الإنسان علمنا أن مُعِداً قد أعده لذلك.

٢) ولو رأينا مركباً سائراً نحو نقطة مقصودة لعلمنا أن قائداً يقوده.

وهكذا هذا الكون من تأمله وجد أنه مخلوق من خالق حكيم عليم خبير حي قيوم بديع السموات والأرض.

وهذا الدليل من الطرق الشرعية التي أقامها الله لعبادة ليعرفوا منها أن لهم رباً عليماً حكيماً قد أوجدهم بعناية ودقة وإحكام وهيَّأ لهم هذا الكون ليعبدوه وليوحدوه.[١]

ويمكن أن نلخص دليل الخلق بما يلي:

- كل مخلوق لابد له من خالق.
- العدم لا يمكن أن يخلق شيئاً.
- فاقد الشيء لا يعطيه.
- التدبر في صفات المخلوق يدلنا على بعض صفات الخالق.

---

(١) انظر: في ذلك تلبيس الجهمية ٢/ ١٧٢ـ١٨٢.

وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود»[١]

و أما الأصل الثاني:

وهو: أن هذه الموافقة وهذه الدقة وهذا الإحكام بالضرورة قد أوجد من قبل حكيم خبير، وهذه قضية بدهية فطرية، لا يجحدها إلا مكابر، و بذلك تكون دلالته في غاية القوة و الحجية، حيث قامت على معلومات أولية بدهية، و مشاهدات حسية في متناول الجميع[٢].

ومن تأمل هذا الكون وما فيه من مخلوقات محكمة، يجد أنه قد وضعت في موضعها بدقة وإحكام وعناية فائقة، موافقةً للمنفعة الموجودة، والغاية المطلوبة، حتى يرى أنه لو وجد بغير تلك الصفة، أو بغير ذلك الوضع، أو بغير ذلك القدر، لم توجد فيه تلك المنفعة، لأدرك على القطع أن لذلك خالقاً حكيماً أوجده، وأنه لا يمكن أن تكون قد وجدت اتفاقاً من غير موجد.

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

إذا ما طفت ببصرك وبصيرتك في هذا الكون العظيم وما حوى من مخلوقات؛ الشمس والقمر وسائر الكواكب، والليل والنهار، والأمطار والرياح والمياه، والأنهار والبحار، بل وجود الناس على اختلاف أصنافهم

---

(١) تفسير ابن سعدي ١/ ٥٠٦.

(٢) دلائل التوحيد لمحمد جمال الدين القاسمي / ٢٠٧.

للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصِّها، بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها»[1].

وهذه الهداية عامة لا تتعلق بالمكلفين فحسب، وليست مقصورة على الكائنات التي تتحرك بالإرادة فحسب، ولكنها هداية مبثوثة في كل شيء في هذا الوجود لتحمل في طياتها أبلغ الأدلة على وجود الرب جل وعلا وبديع صنعه وتدبيره.

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(ثُمَّ هَدَىٰ) كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧] فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه،

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٧٠٠.

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: (فقدّره تقديرا) يقول: فسوّى كل ما خلق، وهيّأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت»[(١)].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا) أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه»[(٢)]

المحور الثالث: الهداية:

الهداية من أظهر الأدلة الكونية على وجود الله جل وعلا، ويقصد بها في هذا المقام أن كل خلق من مخلوقات الله قد ألهم غاية وجوده، وهدى إلى ما خلق من أجله، وألهم الإلهام الفطري أو الغريزي الذي تتوجه به المخلوقات قاطبة إلى أداء دورها وتحقيق وظيفتها في هذه الحياة. قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى] وقال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾ [النمل].

وقال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد بالوحي ههنا: الإلهام والهداية، والإرشاد

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٢٣٦.

(٢) تفسير السعدي ١ / ٥٧٧.

قال: «إِنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضعة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ في الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»(١).

فهذه الآيات وغيرها تدل على عناية الله وخلقه لهذا الكون؛ لما فيه من التنظيم الدقيق والتناسق في أجزاء الكون في أقصى غايات الدقة والتنظيم العجيب الذي حيّر أولي الألباب.

المحور الثاني: التقدير:

التقدير: هو خلق كل شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب دقيق بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه.

فإذا كان الإتقان والعناية إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يُؤدي به وظيفته على الوجه المناسب له، فإن التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفع به نفسه ولا يضر غيره ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وضع في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكَمِّ الذي يصلح ولا يفسد، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه وينتظم بها سير الوجود.

وهذا التقدير ظاهرة عامة في جميع مخلوقات الله كما قرر سبحانه هذه الحقيقة في كتابه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾[الطلاق] وقال جل شأنه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر].

---

(١) رواه البخاري (ح٣٢٠٨) ومسلم (ح٢٦٤٣).

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الذاريات].

قال سبحانه: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾ [الملك].

أي لا مجال لنظر ناقد أو نقد مقوم، بل فيه من مظاهر الإتقان ما حير أولي الألباب، ووقفت عنده عيون الناظرين حائرة ذليلة لربها من عظم الدهشة بدقة الخلق وإتقانه وإحكامه.

ولقد بين الله سبحانه عنايته بهذا الكون وما حوى من مخلوقات: قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس] وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] وقوله: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ الآيات [عبس] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ورعاية الله لمخلوقاته وعنايته بهم وحفظه للإنسان في بطن أمه ثم بعد خروجه، ورعايته لسائر المخلوقات كما في آية الحج، وكما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: حدثنا رسول الله عليه وسلم وَهُوَ الصادق المَصْدُوقُ

المحور الأول: الدقة والإتقان:

جاء ذكر ذلك في كتاب الله في عدة مواضع للفت انتباه المكلفين إلى عظيم قدرته سبحانه وتعالى ودقة خلقه وإيجاده، كما أنه جاء التعبير عنه بعدة ألفاظ منها: الإتقان قال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[النمل] .

وجاء بلفظ سوّى: قال سبحانه ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ القيامة وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعلى] وتسوية الشيء: إتقانه وإحسان خلقه وإكمال صنعته، بحيث يكون مُهيئاً لأداء وظيفته، ويكون مستوياً معتدلاً متناسب الأجزاء ليس بينها تفاوت يُخل بالمقصود.

وجاء بعبارات أخرى مختلفة الألفاظ وإن كانت مُتقاربة الدلالة كالإحسان ونفي التفاوت وإعطاء الخلق ونحوه، قال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] واستدل بذلك نبي الله إلياس محتجا به على قومه مستدلا بوجوب عبادته فقال سبحانه: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة].

وإذا كان الخلق يدل على وجود الله جل وعلا فإن دلالة الإتقان والعناية على وجوده أظهر وأبين، لأن العناية أخص من الخلق، إذ قد يُخلق الشيء بغير عناية وإتقان، وهذه العناية ظاهرة في الكائنات كلها. ولكنها في الكائنات الحية أظهر -وفي الإنسان على وجه الخصوص- أظهر وأبين قال سبحانه:

المبحث الثالث: دليل العناية:

يقصد بالعناية ظهور آثار الكمال في الخلق والتي تتجلى في إتقانه وإحكامه ودقة صنعه وترابطه.

دليل العناية مبني على أصلين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان مهيأة له.

الثاني: أن هذه الموافقة وهذه الدقة وهذا الإحكام بالضرورة قد أوجد من قبل حكيم خبير مريد لعبادة الخلق له وتوحيدهم إياه[1].

فأما الأصل الأول:

وهو كون الموجودات موافقة لوجود الإنسان، فيتحصل اليقين به باعتبار موافقة المخلوقات لوجود الإنسان من الليل والنهار، والشمس والقمر، الأزمنة بفصولها والأمكنة باختلافها، وكثير من الحيوان والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة كل ما في هذه الأرض وغيرها من مخلوقات فهي موافقة لخلق الإنسان، وكذلك أيضاً تظهر العناية في البدن، كما أن معرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس، وكلما كان الوقوف على منافع الموجودات وحكمها والغاية التي وجدت لأجله أطول و أكثر تأملا، كان الوقوف على هذه الدلالة أتم.

ويمكن القول بأن هذا كله وغيره يمكن جمعه في ثلاث محاور كما ورد في القرآن الكريم:

---

(١) انظر: دلائل التوحيد القاسمي ٣٣ - ٣٦ وبيان تلبيس الجهمية ١/ ١٧٥،

وليس شرطاً أن يقف كل أحد على حدوث كل شيء حتى يصدق بذلك؛ بل إن ذلك غير ممكن كما قال ﷻ: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١ ﴾ [الكهف].

ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر].

وقال أيضا: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح] .

وجاء مفصلاً كما قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون][(١)].

قال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[(٢)].

فهذه الأدلة العقلية الشرعية من الآيات المتلوة والمرئية، تدل على تفرده سبحانه بالخلق وإدارة الكون، كما تدل على أن هذا الكون وما فيه مخلوق، والمخلوق لابد له من خالق، ولهذا كانت الرسل تحتج بذلك على أقوامها، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[إبراهيم: ١٠]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «نفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل، وإنما يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحس و بالضرورة، والعلم بحدوث هذه المحدثات علم ضروري، لا يحتاج إلى دليل»[(٣)].

---

(١) انظر: أضواء البيان ٧/ ١٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٨٣. وانظر: الدر المنثور ٧/ ٦١٩.

(٣) درء التعارض ٧/ ٢١٩.

قال في أضواء البيان: «أي من أعضاء وأجزاء وتراكيب وعدة أجهزة تبهر العقول في السمع وفي البصر وفي الشم وفي الذوق وفي الحس ومن داخل الجسم ما هو أعظم فحق أن يقسم بها. (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا) أي: بالقدرة الباهرة والعلم الشامل، وذكرها بالمعنى الثاني فإنه في نظري أعظم من المعنى الأول، وذلك أن القوى المدركة والمفكرة والمقدرة للأمور التي لها الاختيار ومنها القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع فإنها عالم مستقل.

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم لأن الجانب الخلقي قال تعالى فيه ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر: ٥٧]، ولكن في هذا الجانب قال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[الأحزاب] ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق وأداها بوفاء ونال رضى الله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه.

فهذه النفس في تسويتها لتلقى معاني الخير والشر واستقبال الإلهام الإلهي للفجور والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد والتي لا تملك سلبا ولا إيجابا»[(١)]

بل قد صرح بعض العلماء بوجوب النظر في خلق الإنسان أخذاً من قوله ﷻ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق][(٢)].

كما أنه قد جاء ذكر هذا الدليل إجمالاً كما في قوله ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ

(١) أضواء البيان ٨ / ٥٣٩ـ ٣٤٠.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٣٣٨.

وبين أيضا أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئا منها: تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها، وزبدها وسمنها، وأقطها ويلبسوا من جلودها، وأصوافها وأوبارها وأشعارها، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[غافر: ٧٩ - ٨٠]»[(١)].

الثاني: التفكر في الأنفس:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها»[(٢)] وأكثر سبحانه من ذكرها في كتابه وأمر بالتفكر في خلق الإنسان والنظر في أطوار خلقه وعظيم إبداعه وتسخير ما في الكون له، فقد جعل الأرض بساطاً والجبال أوتادا وألان له الحديد وقرب له البعيد وسخر له ما فيها من نبات ومعادن ومخلوقات، بل جعله سبحانه هو سيد هذا الأرض، ذكر ذلك سبحانه في كتابه بأساليب مختلفة وطرق متعددة، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس] بل لقد لفت سبحانه نظر رسوله الكريم إليه في أول آية أنزلها عليه فقال ﷻ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾[العلق] وأنكر سبحانه على من ترك التبصر والتفكر في خلق النفس الإنسانية، فقال ﷻ: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الذاريات].

---

(١) أضواء البيان - ٦ / ٣٧٦.

(٢) النبوات ١٠ / ٨١. وانظر: الفتاوى ٤/ ٢٨٢.

القرى الخاوية.

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

قال ابن سعدي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(قُلْ) لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: (سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ) بأبدانكم وقلوبكم (فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ) فإنكم ستجدون أمما من الآدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجدون النبات والأشجار، كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجددها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة، فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى -النوم- وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتتهم، قائلين: «الحمد للّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[1].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] و«الآفاق» جمع أفق وهو الناحية، والله جل وعلا قد بين من غرائب صنعه، وعجائبه، في نواحي سماواته وأرضه، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده. كما أشرنا إليه، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال، والدواب والبحار، إلى غير ذلك.

---

(١) تفسير السعدي ١ / ٦٢٨.

قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

وسأقتصر على مثال لكل منهما.

أولا: النظر في الآفاق:

أمر الله بالتفكر في الكون والنظر في الآفاق في آيات عديدة متنوعة في العرض وفي الأسلوب، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: محتجاً على المشركين: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

فقد أمر الله العباد في هذه الآيات بالنظر في هذه المخلوقات والاتعاظ والاعتبار، بل أمرهم سبحانه بالسير ليعقلوا بقلوبهم وليتعظوا بحال تلك

ولذلك ألزم الله المشركين بهذا التوحيد على أن يقروا ويعترفوا بتوحيد الإلهية.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت]

ومما يذكر عن أبي حنيفة قوله لمن أنكر وجود الله: (ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأثقال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز في العقل؟ قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ؟ فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقت وتابوا)[1].

وقال بعض الحكماء: لو لم يكن للعالم صانع لكان أضيع ضائع، هل رأيت مصنوعاً بلا صانع، وسقفاً مرفوعاً بلا رافع، وهل ينفي الصانع إلا جاحد أو مكابر؟!.

الثاني: دليل الحس:

هذا الدليل يمكن حصره في قسمين كما أخبر سبحانه:

أحدهما: النظر في الآفاق.

والثاني: النظر في الأنفس.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ١٢٧، وتفسير الرازي ١/ ٢٥٥. وانظر: العقيدة في الله ٧٠ للاشقر.

تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ فماذا كان الجواب.؟ سؤال آخر أبان عجزه وأكذبه في زعمه الأول ﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فكانت النتيجة أن بهت الذي كفر(١).

فمن زعم أنه خلق نفسه، احتج عليه بعدم استطاعته خلق السموات والأرض.

وهذا الأمر يدركه من هو على الفطرة السليمة، فهذا أحد الأعراب يقول: «البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير»(٢).

وقال آخر: «سل الأرض: من فجّر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً»(٣).

وقال الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد(٤)

---

(١) انظر: العقيدة في الله ٧١.

(٢) جواهر الأدب من خطبة قس بن ساعدة ٢/ ١٩، والبيان والتبيين ١/ ١٦٣، إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ١/ ٥٢.

(٣) والبيان والتبيين ١/ ٥٨. زهر الآداب وثمر الألباب ١ / ٣٠٨، الحيوان ١ / ٣٥ في خطبة للفضل بن عيسى الرقاشي.

(٤) الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ص ٦٩ـ٧٠. وانظر: المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ١٦.

قال الخطابي: «إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة فأدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه»(١).

وهذا استدلال بأمر مفحم لا يمكن إلا التسليم للحق أو الخروج عن موجب العقل.

وذلك لا يخلو من ثلاثة أمور:

١) ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ فوُجِدوا بلا موجد وهذا عين المحال، لأنه لابد في الموجود من موجد، فإذا أنكروا الإله الخالق لم يجز أن يُوجَدوا بلا خالق خلقهم.

٢) ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أم هم الخالقون لأنفسهم وذلك في الفساد أكثر وفي الباطل أشد، لأن ما لاوجود له كيف يوجد نفسه؟ وكيف يكون موصوفاً بالقدرة؟.

٣) فإذا بطل الوجهان وبان استحالتهما تعين القسم الثالث وهو: أن الله هو الذي خلق الخلق فقامت الحجة بوجوب عبادته وحده دون من سواه.

ثم أردف سبحانه بدلائل تؤكد هذا الدليل وتبينه فقال: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وذلك شيء لا يمكنهم أن يدّعوه بوجه من الوجوه، فهم منقطعون والحجة قائمة عليهم.

ففي هذا السؤال قطع الحجاج والخصام، إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول: أنا خلقت نفسي كما زعم النمروذ فيما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ أَلَمْ

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، شرح الحديث رقم (٨٠٢) وذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ١٥١.

وجميع المخلوقات فلا راد لأمره ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وتارة يستدل بتفرده سبحانه وتعالى بالقوة والسلطان وإسداء نعمه على خلقه وبسطه للأرض وتهيئته لها وتسخيره لما فيه للإنسان، وتارة يستدل بأفعاله جل شأنه من خلق المخلوقات من السموات والأرض والناس والدواب وغيرها، وكثيرا ما يأمر بالنظر في مآلات المعاندين والمكذبين وكيف فعل بهم، وتارة يستدل بخلق الإنسان وما مر به من أطوار وما ينتظره من مآل، كل ذلك وغيره كثير يستدل به سبحانه وتعالى على عظيم خلقه وقدرته.

لكن تتبع ذلك في كتاب الله ليس هذا محلا لذكره إذ المقصود الإشارة؛ وسأقتصر على ذكر دليلين عليهما يجمعان جميع الأدلة الواردة في كتاب الله جل جلاله وهما: **دلالة العقل ودلالة الحس**.

فأما الأول: وهو دلالة العقل:

أجمل الله سبحانه وتعالى دلالة العقل على ذلك بأوجز عبارة وأبلغها قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الطور: ٣٦]، وهذا دليل يرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقاً معبوداً.

روى البخاري في صحيحة عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت النبي ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الطور] قال: كاد قلبي أن يطير)[1].

(١) رواه البخاري (ح ٤٨٥٤).

المبحث الثاني: دليل الخلق

يراد بدليل الخلق: الاستدلال بوجود المخلوق على وجود الخالق ووجوب عبادته.

ودليل الخلق ينبني على مقدمتين ونتيجة:

المقدمة الأولى: أن هذه الموجودات مخلوقة موجودة بعد أن لم تكن موجودة.

المقدمة الثانية: وهي كل مخلوق لا بد له من خالق، وكل موجود لا بد له من موجد.

إن وجود الموجودات بعد العدم، وحدوثها بعد أن لم تكن، يدل بداهة على وجود من أوجدها وأحدثها، ولا بد أن يكون هذا الموجد متصفاً بصفات الربوبية والألوهية.[١]

وهذه الدلالة أظهر دلائل الربوبية، وما من شك أن العلم بهذا حاصل بالضرورة، من طريقي الحس والخبر الصادق.[٢] ولذا نجد أن الله جل وعلا أكثر من ذكر هذا الدليل في كتابه العظيم ليبرهن لهم على استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، كما أنه هو وحده المتفرد بالخلق والملك والتدبير، ولهذا نجد أن الله جل ذكره بين هذا النوع من الأدلة بأساليب متنوعة وبذكر مظاهر من الخلق متعددة، فتارة يستدل جل وعلا عليه بتفرده بإيجاد الموجودات من عدم مبينا بالغ قدرته على إعادتها، وتارة يستدل بتفرده بتدبير هذا الكون

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٣/ ١١٨ وما بعدها.

(٢) انظر: الأدلة العقلية النقلية / ٢١٧.

الصحيحة من استقامته على الفطرة التي قد يطرأ عليها من الشبهات والشكوك والغفلة ما يبعدها عما أوجدت له، فإن الشياطين من الإنس والجن قد تجتال العباد وتنحيهم عما دلت عليه فطرتهم.

ولذلك ترى أن المشركين يحتجون بغفلتهم عن إقرارهم بعبودية الله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف]، أو يحتجون بشرك آبائهم ومتابعتهم على ضلالهم؛ لأن العادة جرت على أن يسلك الرجل مسلك أبيه، فيربيه بما معه من حق أو باطل، ولذلك لا يقبل الله منهم هذا الاحتجاج لكونه فطرهم على معرفته والإقرار به[1].

(١) انظر: المصدر السابق ٤٨٩ وما بعدها.

أ ـ أن هذا خلاف الواقع.

ب ـ أن المخلوق ليس بأولى من المخلوق الآخر بأن يكون رباً وإلهاً، إذ أن هذا المعبود إما أن يكون حياً أو ميتاً. فإن كان ميتاً، فمن الممتنع أن يكون العباد مفطورين على عبادة الميت والإيمان بربوبيته.

وإن كان حياً فهو ليس بأولى من غيره الحي، وإلا للزم أن يكون كل حي ربا لكل حي، أو أن كل حي ربٌّ لآخر. إذ أن هذا يلزم منه التسلسل والدور في المؤثرين وهذا ممتنع(١).

ولذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب ليكمل بها الفطرة ويذكرها ويوجهها إلى ما هو مركوز فيها من معرفة الله والإقرار به.

٥) معرفته سبحانه من الأمور الضرورية:

دل العقل على أن معرفة الله من العلوم الضرورية التي لا تحتاج كبير عناء في اكتسابها، بخلاف غيرها من العلوم؛ كالحساب مثلا مع حاجة الإنسان له، لكن الإنسان قد يغفل عنها في كثير من الأحيان لشبهة نظر أو لبس في فهم الدليل، بخلاف الفطرة فإنه علم ضروري لازم لكل أحد. ولذا جاء أسلوب القرآن في الاستدلال على وجود الله على سبيل التذكير: قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية: ٢١].

وكل ما في القرآن من دعوة إلى الله إنما هي تذكير للإنسان بما دلت عليه فطرته من وجوب عبادة الله سبحانه وتعالى، ومحاولة للعودة به إلى حالته

---

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٤٥٦ـ٤٦٨، ٤٨٣.

وربوبيته والإيمان به إما أن يكون هو الحق أو نقيضه، والتقدير الثاني فاسد قطعاً، فتعين الأول.

ومن هنا كانت كل نفس مفطورة على الاعتراف بالخالق والإقرار به استجابة لما هي مركوزة عليه من طلب كل ما هو حق ونافع والاعتراف به.(١)

٢) زيادة العلم توجب الإقرار به.

إننا نجد أن الانسان كلما ازداد علماً وإرادة وأخلاقاً وتفكراً كلما ازداد معرفة بخالقه ومحبة له، وهذا دليل على أن النفوس مفطورة على الاعتراف به.

وعلى هذا فإما أن يكون الإقرار بالخالق والإيمان والاعتراف به وبربوبيته أكمل للناس علماً وقصداً، أو ضدها أكمل للناس، والثاني باطل قطعاً، فلا بد أن تكون الفطرة مقتضية للإيمان بربوبيته وسائر خصائصه سبحانه.(٢)

٣) شعور النفس وإرادتها:

أن النفس إذا كانت لا تخلو من الشعور والإرادة فإن من الممتنع أن تكون غير شاعرة بوجوده وعدمه، أو محبته وعدمها، إذ لازم ذلك كون ذلك ليس من لوازم وجودها، وهذا باطل فلا بد وأن تكون شاعرة به عالمة بربوبيته ضرورة، إذ أن ذلك من لوازم وجودها، إذ لا يعقل أثر بغير مؤثر، وموجود بغير موجد.(٣)

٤) أن من الممتنع أن يكون الناس فطروا على غير ربوبيته لعدة أمور منها:

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧. وانظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٢٤

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤٦٤.

إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص].

وليس المراد من الفطرة أن الإنسان حين ولادته يكون عابدا لله عارفاً بحقوقه موحداً له بحيث يدرك ذلك كله ويعرفه، فإن الله يقول﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[النحل: ٧٨] ونحن نعلم بالاضطرار أن الإنسان ليس عنده معرفة بهذا الأمر على التفصيل، ولكن ولادته على الفطرة تقتضى ذلك وتستوجبه بحسبها، ولذا احتاج إلى الرسل والتلقي عنهم وعبادة الله وفق نهجهم(١).

والكتاب والسنة دلا على أن الخلق مفطور على دين الله الذي هو معرفة الله والإقرار به، فهذا هو موجب فطرتهم، ولا ينكر ذلك إلا مكابر جاحد كفرعون ومن نهج نهجه.

ثالثاً: دلالة العقل:

دل العقل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته ومن ذلك:

١) ترجيح النافع على الضار:

إن الانسان يجد في نفسه أنه مدفوع في فطرته إلى ترجيح النافع على الضار، والصحيح على السقيم، لاسيما أنه يحصل له كثير من المعتقدات والإرادات والدوافع التي منها الحق والباطل.

وكذلك نجد أن الطفل مدفوع بفطرته إلى لبن أمه، وفي هذا دليل على أن النفس مركوزة على قبول الحق النافع، وعلى هذا فإن الإقرار بوجود الخالق

---

(١) درء التعارض ٨ / ٤٦٠. وانظر: الأدلة العقلية النقلية ٢٠٤.

كانت قلوبهم تعرفه وتقر به وكل مولود يولد على الفطرة»[(١)].

ثانياً: دلالة السنة:

دلت السنة النبوية على ما دل عليه القرآن فمن ذلك:

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[(٢)].

فإن قيل: ألا يلزم من استقرار معرفة الله تعالى في الفطرة عدم وقوع إنكار الخلق؟ والحاصل أنه واقع بالفعل، فكيف اجتمع إنكاره مع كونه معروفا بالفطرة؟.

والجواب بأن نقول: إن هذا الاستشكال ومثله نابع من أن فطرة الإنسان لا تتغير ولا تتبدل والواقع أن إنكار وجود الله إنما نبع من المؤثرات التي تحيط بالإنسان وتؤثر عليه كما دل على ذلك الحديث: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

كما أنه قد يقال: إن التوجه إلى الله أمر فطري فلماذا عبد الناس في مختلف العصور والأزمان غيره؟.

فالجواب بأن نقول: الفطرة تدعو إلى معرفة الخالق والإقرار به، لكن الإنسان تحيط به مؤثرات تجعله ينحرف، كما سبق في قوله ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»

وكذلك شياطين الجن والإنس تتخطفه من كل مكان، كما قال تعالى عن

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦ / ٣٣٨.

(٢) تقدم تخريجه انظر: ص ٢٠.

أي أن الله تعالى فوق الشك، و أن الشك فيه مما تنكره الفطر، و هذه الحجة داخلية نابعة من نفس الإنسان، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، و الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والثانية: العقل، وذلك في قولهم ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، فإن هذا استدلال بالخلق على الخالق، و هذه الحجة خارجية، مأخوذة من دلالة الأثر على المؤثر، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه(١).

٤ ـ ومن ذلك أيضاً: أن هذه القضية لم تذكر في الكتاب كثيراً، وإنما اكتفى سبحانه بجعلها من باب المسلمات واحتج بها على وجوب إفراده بالعبادة، كما أنه لم يناقش الدهرية، وإنما اكتفى بتجهيلهم؛ لأن خطأهم معلوم لجميع الناس.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

٥ ـ أن الرسل ابتدؤوا دعوتهم لأقوامهم بتوحيد الألوهية والعبادة ولم يدعوهم إلى توحيد الربوبية مما يبين أن إقرارهم به مستقر في نفوسهم، ولو لم يكن كذلك لقالوا لرسلهم: نحن لا نعرفه أصلا فكيف يأمرنا(٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه. فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة، إذ

(١) تفسير ابن كثير، ص٢٠٠. وانظر: الأدلة العقلية النقلية ص٢٠٠.

(٢) انظر: درء التعارض لابن تيمية ٣/ ١٢٩ـ١٣٠.

يومي هذا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم من دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنْزل به سلطاناً[(١)]»[(٢)].

وهذا كله مما يؤيد القول بأن المراد بالميثاق الفطرة، لكن يبقى أن يقال إن ما ورد من آثار تؤيد القول الأول لا يمكن إغفالها أو إنكارها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم وحصولهم في القبضتين كثيرة لا سبيل إلى ردها وإنكارها، ويكفي وصولها إلى التابعين فكيف بالصحابة، ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين»[(٣)] وقد قال جمع بالتواتر المعنوي لهذه الآثار[(٤)].

٣ ـ ما جاء في جواب الرسل للكفار لما قالوا: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[إبراهيم: ١٠].

و قد ذكر الحافظ ابن كثير أن قول الرسل﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾يحتمل أمرين:

الأول: أفي وجوده شك؟.

الثاني: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك؟[(٥)].

فيكون الرسل قد احتجوا على الكفار بحجتين:

الأولى: الفطرة، فإن قولهم ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾استفهام تقرير مفاده النفي،

---

(١) رواه مسلم (ح ٢٨٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٠٠.

(٣) أحكام أهل الذمة ٢ / ١٠٠٦

(٤) انظر: فتح البيان للقنوجي ٥/ ٧١، معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٠١، والسلسلة الصحيحة للألباني ٤/ ١٦٢. وانظر: الفطرة حقيقتها ومذاهب الناس فيها ص٥٢٤وما بعدها.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٢٦.

الميثاق الذي أخذه الله على عباده كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴿١٧٢﴾﴾.

وقول الخليقة: شهدنا على أنفسنا أي: أقررنا بربوبية الله جل جلاله وأنه خالقهم، فهم قد خلقوا على ذلك شاهدين على أنفسهم بهذا الإقرار معترفين به، ولذلك كان هو حجة الله على خلقه يوم القيامة، ولهذا قال سبحانه مذكراً لهم بذلك: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[الأعراف] أي كراهة أن تحتجوا بغفلتكم يوم القيامة؛ لأن هذا الأمر الضروري الذي لا يغفل عنه بشر.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟. قال فيقول: نعم، فيقول قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك وأنت في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»(١).

وقال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم قرأ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[الروم: ٣٠](٢).

فمعنى الفطرة هنا الإقرار بمعرفة الله تعالى الموجبة لتوحيده والاستقامة على دينه.

ولذلك جاء قوله ﷺ: «إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في

---

(١) رواه البخاري (ح٣٣٣٤) ومسلم (٢٨٠٥).

(٢) البخاري رقم (١٣٥٩)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

فاستخرج منه ذريته، فأشهدهم على أنفسهم بربوبيته، فأقروا له بلسان المقال، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر وجمع كبير من الصحابة التابعين وغيرهم.

الثاني: خلقهم على الفطرة، المتضمنة الإقرار بالخالق، و الشهادة له بالربوبية، فالإشهاد والإقرار على هذا القول حاصلان بلسان الحال، لا بلسان المقال[١].

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث المرفوعة الثابتة، ولا يدل عليه القرآن، فإن القرآن يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فذكر الأخذ من ظهور بني آدم لا من نفس آدم، وذرياتهم يتناول كل من ولدوه وإن كان كثيرا، وقوله ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾ يقتضي أنه هو الذي جعلهم شاهدين على أنفسهم بأنه ربهم، وهذا الإشهاد مقرون بأخذهم من ظهور آبائهم، وهذا الأخذ المشهود الذي لا ريب فيه، هو أخذ المني من أصلاب الآباء ونزوله في أرحام الأمهات، فالأخذ يتضمن خلقهم والإشهاد يتضمن هدايتهم إلى هذا الإقرار، فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم وخالقهم و أنهم عبيده المخلوقون له، وهذا الإقرار حجة لله عليهم يوم القيامة، ولهذا جميع بني آدم مقرون بهذا، شاهدون به على أنفسهم، والقول بإثبات الله أمر فطري ضروري لهم لا ينفك عنه مخلوق، وهو مما خلقوا عليه وجبلوا عليه، وجُعل علما ضروريا لهم لا يمكن لأحدٍ جحده»[٢]

فالله تعالى قد فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره، وهذا هو

---

(١) المرجع السابق، وانظر: تفسير الطبري ١٣/ ١٧٢، وأضواء البيان ٢/ ٤٢، والأدلة العقلية النقلية ص ١٩٩.

(٢) درء التعارض ٨ / ٤٨٤ ـ ٤٨٨ بتصرف.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[١].

وقد نقل الإمام ابن عبد البر[٢] إجماع أهل التفسير على أن المقصود بالفطرة: الإسلام، حيث يقول «أجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام، و هو المعروف عند السلف»[٣].

و قوله: لا تبديل لخلق الله تحتمل معنيين:

أحدهما: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها - فيكون خبراً بمعنى الطلب.

الثاني: أنه خبر على بابه أي: ساوى الله بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك.[٤].

٢ـ قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

و للمفسرين في المراد بالأخذ و الإشهاد قولان:

الأول: ما جاءت به السنة من أن الله تعالى مسح على ظهر آدم عليه السلام،

---

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٩٧.

(٢) ابن عبد البر الحافظ الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ولد سنة ثمان وستين وثلاثمائة في ربيع الآخر، وساد أهل الزمان في الحفظ والإتقان، ولم يكن بالأندلس مثله في الحديث، له التمهيد شرح الموطأ والاستذكار مختصره والاستيعاب في الصحابة، مات سنة ثلاث وستين وأربعمائة عن خمس وتسعين سنة.انظر: طبقات الحفاظ ١/ ٤٣١، ٤٣٢.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١٨/ ٧٢.

(٤) تفسير ابن كثير٦/ ٥٠٠١.

كما قرره سبحانه في كتابه في مواضع فلا يحتاج إلى دليل؛ بل هو أرسخ المعارف وأثبت العلوم وأصل الأصول»[١] كيف لا «ووجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه»[٢].

وقد دلّ على ما تقدم الكتاب والسنة والعقل:

أولا: دلالة الكتاب:

جاء التنبيه إلى هذه المعرفة في مواضع من كتاب الله جل وعلا والتي منها ما يلي:

١ـ قوله تعالى﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الروم].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: فسدِّد وجهك نحو الوجه الذي وجّهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين، ﴿ حَنِيفًا ﴾ يقول: مستقيما لدينه وطاعته﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها ونصبت «فطرةَ» على المصدر من معنى قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ وذلك أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٧٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢١٩.

هنا الابتداء والخلق والإيجاد على غير مثال سابق. وقال سبحانه: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾[المزمل: ١٨] إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وابداعه لها.(١)

ومن معان الفطرة أيضاً: السنة كما في الحديث: «خمس من الفطرة»(٢).

المراد بالفطرة في الاصطلاح الشرعي:

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف الفطرة: «هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه»(٣)

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: «قال العلماء الفطرة هي الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل، التي هي معدة، ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه ويؤمن به»(٤)

وقال أبو البقاء الكفوي: «الفطرة هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته»(٥).

أما ما جاء في السنة: «كل مولود يولد على الفطرة» فالمراد به الإسلام.(٦)

ومن هنا يتبين أن الإقرار بوجود الخالق أمر فطري فطر الخلق عليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإقرار بالله والاعتراف به ثابت في الفطرة

---

(١) انظر: المفردات للأصبهاني ٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٨٨٩) ومسلم (ح ٢٥٧). وقد تقدم تخريجه ص ٢٠.

(٣) بهجة قلوب الأبرار ص ٦٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٩).

(٥) كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى ١ / ١١٠٥.

(٦) انظر: درء التعارض٨/ ٣٦٧ - ٣٧١.

المبحث الأول: دليل الفطرة.

معنى الفطرة في اللغة:

قال الخليل: «وفطر الله الخلق، أي خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السماوات والأرض، والفطرة التي طبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربوبيته..وانفطر الثوب وتفطر أي انشق، وتفطرت الجبال والأرض انصدعت»(١).

وقال الجوهري: «والفِطْرة بالكسر الخلقة»(٢).

«والفِطْرَة: الجِبلَّة التي فطر الله تعالى عليها الخَلْقَ. ورُوي في الحديث: «كل مولودٍ يولد على الفِطْرَة»(٣)

«الجِبِلَّةُ بكسرتين وتثقيل اللام و الطَّبِيعَةُ و الخَلِيقَةُ والغَرِيزَةُ بمعنى واحد وجَبَلَهُ الله على كذا من باب قتل فطره عليه»(٤).

وبهذا يتبين أن معنى الفطرة في اللغة يدور معناه على الشق والابتداء والخلق والجبلة والطبيعة. وقد ورد ذكر أغلب هذه المعاني في القرآن قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾ [الشورى: ٥] والمقصود يتشققن وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الإسراء: ٥١]، والمعنى

---

(١) العين ٧/ ٤١٨.

(٢) الصحاح ٢/ ٧٨١، وانظر: العين ٧/ ٤١٧ – ٤١٨، لسان العرب ٥/ ٥٥ - ٥٨.

(٣) جمهرة اللغة ١ / ٤١٤.

(٤) المصباح المنير- العلمية ١ / ٩٠.

تمهيد

مما هو معلوم بالضرورة أن وحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته معلومة لكل عاقل سليم؛ بل إن إدراك ذلك قد جبل عليه كل الخلق إلا من شذ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وحدانية الربوبية معلومة بالشريعة النبوية والفطرة الخلقية والضرورة العقلية، والقواطع النقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل».[١]

وقال: «كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء، وتمثّل بقول الشاعر:

ولـيس يصـحّ في الأذهـان شيء إذا احتـاج النهـار إلى دليـل

وكان ﷺ يرتجز بقول عامر بن الأكوع:

والله لـولا الله مـا اهتـدينا ولا صـمنا ولا صـلينا..»[٢]

فدلّ هذا على أن الله يُعرف بالله، ثم هناك أدلة تؤكد هذه المعرفة وتزيدها والتي من أهمها:

١- الفطرة. ٢- الضرورة. ٣-العناية.

٤-الخلق والإيجاد. ٥- معرفة الله بالله. ٦ـ إجماع الأمم.

٧ـ دلالة الكتب المنزلة ومعجزات الأنبياء[٣]. ٨ ـ دليل التمانع.

وسأتناولها في المباحث التالية:

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣ / ٣٠١.

(٢) رواه البخاري ٢٢ / ٤٥.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٠١ وانظر: نبذة في العقيدة الإسلامية لابن عثيمين ص ٧.

المبحث الأول: دليل الفطرة

المبحث الثاني: دليل الخلق

المبحث الثالث: دليل العناية

المبحث الرابع: دليل الضرورة والاضطرار

المبحث الخامس: دليل معرفة الله بالله

المبحث السادس: دليل إجماع الأمم

المبحث السابع: دليل التمانع

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف: ١٤٣].

٨) حاجة الناس في هذا الزمن لمعرفة هذا، لاسيما وأن موجة الإلحاد ما زالت موجودة.

٩) أن كثيراً من المسلمين لا يفرق بين توحيد الربوبية والألوهية، لاسيما الصوفية الذين بالغوا في إثبات توحيد الربوبية.

١٠) أن مجرد معرفة الله لا تستلزم كمال العلم به وبصفاته وأحكامه؛ بل قد يعرفه من لا يؤمن به بخلاف من علم به، فلا بد أن يكون شاكراً ذاكراً منيباً مخبتاً لربه جلّ جلاله.

٢) الاحتجاج به على المشركين بوجوب الإيمان به وتوحيده في العبادة ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

٣) ذكره لصفات الربوبية، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة] ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[الزمر: ٦٢]﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنعام].

٤) الاستهزاء بالمشركين الذين عبدوا معه غيره ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف] ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل].

٥) للفت التأمل والتذكر والتفكر في مخلوقات الله. ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران] .

٦) العبرة والعظة من فعل الله بالأمم السابقة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1] [الحج].

٧) أنها سبب لزيادة الإيمان، فالدليل المحسوس أقوى في التأثير من غيره، قال الله تعالى على لسان الخليل عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة: ٢٦٠]

(١) انظر: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تقرير عقيدة التوحيد ٢٧٦ وما بعدها.

إلا وقد انقاد لربه وأذعن. فلماذا تُعقد مثل هذه المباحث ويُشغل الناس بها؟.

فالجواب أن نقول:

نعم معرفة ربنا جل وعلا لا تحتاج لشحذ الأدلة الدالة على وجوده، فالله جل ذكره هو دليل على وجوده، وليس في الرسل من قال أول ما دعا إليه قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه، فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة، إذ الأمم جميعاً قد أقرت به واعترفت بربوبيته، وقد قالت رسل الله لأقوامهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[إبراهيم: ١٠] فنفت أن يكون في الله شك، وهو استفهام تقريري يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرين به من أنه ليس في الله شك فهذا استفهام تقرير، ومما يؤكد هذا أن القرآن لم يتوسع في ذلك، ولعل ذلك يرجع إلى عدة أمور؛ منها:

١. اتفاق الأمم على الإيمان به والإقرار بمضمونه.

٢. أنه أمر مسلّم، ولذا فإن نجد أن الله إن تكلم عن ربوبية ساقه على سبيل المسلمات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

إلا أنه يمكن القول بأن أسباب دراسة دلائل الربوبية إنما جاءت مستنبطة من القرآن الكريم حيث سيق الكلام فيه لأغراض منها:

١) تقرير عجز المعبودات من دون الله، عن شيء من خصائص الربوبية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج].

أوامره ونواهيه فقيها في قضائه وقدره فقيها في أسمائه وصفاته، فقيها في الحكم الديني الشرعي، والحكم الكوني القدري وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[١].

ونخلص مما تقدم أن دلائل معرفة الله تكمن في أمرين:

أحدهما: معرفة إقرار بوجوده وكمال ربوبيته وتمام هذه بالتفكر في آلائه وآثار ربوبيته.وهذه المعرفة يشترك فيها البر والفاجر إلا أن الخلق يتفاوتون فيها تفاوتا بينا.

والثاني: معرفة تورث كمال عبوديته والخضوع والتذلل له، وتمامها بمعرفة وحيه ودينه والتبصر به.

ومن هذين القسمين تندرج دلائل عديدة لكن لا تخرج عن هذين الأمرين، إلا أن أغلب المشتغلين بالبحث عن دلائل الربوبية يدور بحثهم حول الأول، وهو الإقرار بوجوده وبعض صفات ربوبيته.

وفي هذه الوريقات سيكون محور الكلام حول هذين الأمرين مع ذكر بعض الأمثلة على هذين القسمين.

اعتراض وجوابه:

قد يقول قائل: إن معرفة الله سبحانه وتعالى لا تحتاج إلى النظر والاستدلال، بل إنها حاصلة عند الأمم جميعهم، وهذا مما يبين أنه لا حاجة في سرد الأدلة على وجود الله، فالصغير والكبير، والجن والأنس، بل وجميع المخلوقات قد عرفت ربها، فما من شيء إلا وهو يسبح بحمد ربه، وما من شيء

---

(١) الفوائد ١/ ١٧٠.